

مظاهر من التنظيم الحرفي في بلاد الشام في العهد العثماني

د. عبد الكريم رافق

كلية الآداب - جامعة دمشق

لعبت الطوائف الحرفية دوراً هاماً ، في المجالات الاقتصادية والاجتماعية والادارية ، في بلاد الشام ، في العهد العثماني . وقد انتظم قسم كبير من السكان ، وبخاصة في المدن ، في الطوائف الحرفية ، سواء في مجالات الانتاج ، ام الخدمات ، ام التسويق . وظهر حديثاً كثير من الجدل حول نشأة الطوائف الحرفية وبنيتها ودورها في التاريخ العربي والاسلامي (١) . وقد لاحظ الرحالة العربي ابن بطوطة حين زار امارات الغزاة التركمان في الاناضول ، في النصف الاول من القرن الرابع عشر ، انتشار منظمات الأخية ، التي انتظم فيها الصناع والتجار ، وامتزجت معها تقاليد الفتوة (٢) .

وقد بلغت الطوائف الحرفية درجة كبيرة من التنظيم ، في الولايات العربية ، ايان الحكم العثماني . ولعبت دوراً رئيساً على أكثر من صعيد . وحين تدفقت البضائع الاوربية ، في أعقاب الثورة الصناعية ، الى الاقطار العربية ، في القرن التاسع عشر ، قاست البضائع المحلية من منافستها . وأثر ذلك في إضعاف الطوائف الحرفية .

انواع الطوائف الحرفية

لم تكن الطوائف الحرفية متساوية في العدد ، او متشابهة في النوعية ، في مختلف مدن بلاد الشام ، في جميع الفترات ، في العهد العثماني ، وذلك بسبب اختلاف كل مدينة عن الأخرى من حيث نشاطها الاقتصادي ، محلياً ودولياً . وتتميز حلب بعدد الطوائف وأنواعها وتفرعاتها ، كما تدلنا الوثائق الشرعية ، نظراً لتنوع نشاطاتها الاقتصادية وغناها .

ولم تكن هناك من استمرارية في أنواع الطوائف في مدينة ما ، فبعض الطوائف انقرض او تضاعل شأنه بتناقص الحاجة الى منتجاته . كما أن بعض الطوائف ازدهر وكثرت أنواعه نظراً لازدياد الحاجة اليه . وكمثال على الحال الاولى نذكر انه حين شاع استخدام القوالب في صنع الطواقي (وربما كان المقصود الطرابيش) ، ظهرت طائفة الطواقية الذين يشتغلون الطواقي بالقوالب في دمشق ، في الربع الاول من القرن الثامن عشر ، وبطلت ثلاث طوائف مقابل ذلك هي طائفة الطواقي الزربا ، وطائفة الزربابية ، وطائفة طواقي المخمل (٣) . وكمثال على الحال الثانية نذكر ازدياد شأن الطائفة التي عنيت بالتبغ وأنواعه ، اثر إباحة التدخين من قبل مفتي دمشق الشيخ عبد الغني النابلسي، في الرسالة التي وضعها وعنوانها . الصلح بين الاخوان في حكم إبادة الدخان (٤) .

وتتحكم نوعية المصادر ومدى توافرها ، في مقدار معرفتنا لتطور الطوائف الحرفية في قطر ما او فترة ما . ففي مصر ، مثلاً ، يمكن مقارنة ما كتبه الرحالة العثماني اوليا جلبي ، في رحلته (سياحة نامة) التي قام بها في النصف الثاني من القرن السابع عشر ، وما قدمه من تفصيلات واحصاءات عن الطوائف الحرفية في مصر ، مع الدراسة المفصلة التي قام بها الفرنسيون لهذه الطوائف ابان حملة نابليون بونابرت على مصر عام ١٧٩٨ ، وضمنوها في المؤلف المشهور « وصف مصر » (٥) . اما في بلاد الشام فلا توجد مثل تلك الدراسات التي وضعت عن مصر ، ولهذا وجب الاعتماد على المعلومات المبعثرة في سجلات المحاكم الشرعية . وهناك وصف مفصل ودقيق للصناعات الشامية ، في القرن التاسع عشر ، في « قاموس الصناعات الشامية » (٦) . وبلغ عدد الصناعات التي وردت في هذا القاموس ٤٣٥ صنعة ، بعضها تضاعل شأنه ، وبعضها جديد محدث . وهناك وصف عام وموجز للطوائف وعمليات الشد فيها ، كتب في الربع الاخير من القرن التاسع عشر (٧) .

وقد تميز التنظيم الحرفي ، في بلاد الشام ، بالتخصص وتوزيع العمل . فهناك طوائف عنيت بالانتاج ، واخرى بالخدمات ، او بالتسويق . ونورد فيما يلي الطوائف التي عثرنا على معلومات عنها في سجلات المحاكم الشرعية ، في بعض الفترات ، من كل من حلب ودمشق . ولا تشمل القائمة كافة الطوائف الموجودة فعلاً ، لان الوثائق الشرعية ذكرت فقط الطوائف التي لجأت الى المحكمة لتنصيب شيخ لها ، او عزله ، او لتسوية منازعات ضمن الطائفة ، او بينها وبين الطوائف الاخرى ، او بينها وبين السلطة والسكان . ولم ندخل في قائمة الطوائف اسماء الصناعات التي أوردها « قاموس الصناعات الشامية » لان هدفنا دراسة

مظاهر من التنظيم الحرفي في بلاد الشام في العهد العثماني

الطائفة كمنظمة حرفية . واتبعنا الترتيب الابجدي للطوائف في القائمة التالية . ويمكن تمييز طوائف الانتاج والخدمات والتسويق من خلاله .

وقد ذكرت سجلات المحاكم الشرعية التي اعتمدها من حلب ودمشق ، من القرون السابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر ، ما يقارب من مائة وثلاث وستين طائفة هي : الأبارين ، الأديين ، الأساكفة ، الأشجية ، الاقسماوية (او البقسماوية) ، الالاجاتية ، الامشاطية ، البارودية ، بائعي البن ، بائعي جلال الخيل (الجليلاتية) ، بائعي السختيان الملون ، بائعي العبي ، بائعي لحم الجاموس ، بائعي النعال ، البزورية ، البساتنة ، العكامة ، البغالة ، البقارين ، البقالين ، البكسمادية ، البوابية ، البوزجية ، البيطرة ، التجار جلايي النحاس ، الترايين (الترابية) ، التكنجية ، التوننجية ، الجراكسية ، الجرامين ، الجمالين ، الحبالين ، الحدادين ، الحريريين ، الحصرية ، الحلاقين (أحيانا الحلاقين والجراحين) ، الحلوانية ، الجمالين ، الحمامية ، الحوارين ، الحواصلية ، الحياك ، خبازي الافرنجي ، خبازي الحما ، خبازي المعروك ، الخبازين ، الخرامين ، الخردجية ، الخشابين ، الخضرية ، الخفافين ، الخفافين الأروام بحلب ، الخفافين من ابناء العرب بحلب ، الدباغين ، دباغي الحور ، الدجاجاتية ، الدخانية (بائعي السمك المدخن) الدقاقين (للحنطة) ، الدقاقين (للقماش) ، الدلالين ، دلالي العفص ، دلالي الخام الكلزي ، الدلالين ، رامي البخور ، الرواسين ، الزجاجيين ، الزراميزية ، الزرابية ، السختيانية ، السراجين (السروجية) ، السرفجية ، السعاة ، السقاين ، السكاكينية ، السماصرة ، السمرجية ، السنوسكيين (تذكر أحيانا مع الطباخين والشوابين) ، السيورية ، السيوفية (أحيانا مع السكاكينية ، والقواسين ، والخناجرية ، والتروسية) ، الشدودية ، الشعارين ، السلاحين ، الشماعين (للشحمة) ، الشوابين ، الصابونية ، الصاغرجية ، الصباغين ، صباغي الازرق ، صباغي الاحمر ، صباغي الالوان غير الازرق ، الصرمايانية ، الصناديقية ، الصياغ ، الطباخين ، طحاني الجلب ، طحاني الخاص ، الطوافة ، الطواقية ، طواقي المخمل ، العباجية ، العبايانية ، العتالين ، العجانين ، المرقجية (او المرقيانية) ، العطارين ، العقادين ، العلافين ، العنايانية ، الفرابية والمناخية ، (صناع الفرايل والمناخل) ، المغربلين ، فتالي الحرير ، فتالة الحرير ، العنداري ، الفتالين بالدولاب الكبير ، الفرايين ، الفواخرية ، قازنجيان ، القاوقجية ، القصابين (او اللحامين) ، القصارين ، قطاعي النعل ، القطانين ،

القلاشينية ، القلقات ، القنوية ، القهوة ، القوافين ، الكعيكاتية ، الكلاسين ، الكوايين ، الكونجية ، الكياليين ، اللبابيدية ، اللحفين ، محمصي البن ، المخملجية ، المخومين للسروج ، مداحي الرسول وحكوة السير النبوية ، المدادين ، المرجلية ، المروبصين ، المزيكين ، المسالخية ، المساميرية ، المسلاتية ، المطافجية ، المعاريكة ، المعاصرية ، (لعلها المعصرانية ، واختصت بعصر السمس ، وربما اطلقت الكلمة نفسها على من يعصر الزيتون ويعمل الدبس) ، المقومين ، المعمارية ، الملقية ، المنجدين ، التجارين ، النحاتين ، النحاسين ، النشارين ، النشواتية ، النعالين ، نعالى البوابيسج ، نقاشي النجيث ، النهودية ، الوتارين .

ويلاحظ في قوائم الطوائف هذه انها تغطي قسماً كبيراً من انواع الطوائف ولا تشكل بحال مسحاً عددياً لها (٨) . ومع ذلك فاذا ما قارنا هذا العدد التقريبي للطوائف المتواجدة في حلب ودمشق مع عدد الطوائف التي احصاها اوليا جلبي في القاهرة في زيارته لها حوالي عام ١٦٦٠ والمقدر ب : ٢٦٢ طائفة ، وكذلك مع عدد الطوائف التي احصاها الفرنسيون في القاهرة في عام ١٨٠١ والمقدر ب : ١٩٣ طائفة (٩) ، لوجدنا أن بلاد الشام قد تمتعت بنسبة لا بأس بها من التنظيم الحرفي .

ويلاحظ ايضاً في الطوائف المذكورة أنه يصعب تحديد نسبة الطوائف المعنية بالانتاج الى الطوائف المعنية بالتسويق ، لان بعضها قام بالعملين معاً ، كما في طائفة الحبالين . وادى هذا الازدواج في العمل الى منازعات بين الفريقين (١٠) . اما طوائف الخدمات فبعضها واضح الحدود يسهل فرزه كالدالين والحمالين والعتالين والقنوية والكوايين ، وبعضها ما يجمع بين اعمال الخدمات والتسويق أو الانتاج ، مثل الخاناتية ، والمنجدين ، واللحفين .

ويصعب ، بالاستناد الى المصادر المتوافرة ، معرفة عدد الافراد الذين شكلوا الطائفة الحرفية ، الا في بعض الحالات النادرة ، مثلاً ، بلغ عدد طائفة النحاتين في دمشق في أواخر عام ١٦٨٩ سبعاً وعشرين نحائاً (١١) . وطبيعي أن هذه الطائفة لا تمثل إلا نسبة ضئيلة من الطوائف . ولو اتيح لنا معرفة عدد افراد الطوائف الحرفية لامكننا معرفة نسبة الذين يعملون في الانتاج الى الذين يعملون في الخدمات أو التسويق ، والطوائف الحرفية التي كانت في طريق الازدهار أو الانقراض ، والطبقات الاجتماعية المرتبطة بها ، وبالتالي السمات الأساسية لحياة البلد الاقتصادية . ومع ذلك ، يمكننا ، بالاعتماد على تركت

مظاهر من التنظيم الحرفي في بلاد الشام في العهد العثماني

المتوفين من الحرفيين ، معرفة مدى ازدهار حرفهم ، واوضاعهم العائلية ، وحجم اسرهم (١٢) .

ومما يلاحظ على الطوائف الحرفية التي درسناها غياب اسماء النساء بين اعضائها ، وكذلك غياب طوائف خاصة بالنساء . ومن الطبيعي ان النساء ، سواء في المدن أم في الارياف ، قمن بأعمال حرفية هامة ، مثل قشر القطن ، وغزله ، او حبل جبال القش لصنع الحصر . ولا نعلم فيما اذا انتظمت النساء ضمن طوائف خاصة بهن ولم يتيسر الاعلان عنها نظراً للحياة المغلقة التي كن يعشنها . وفي مثال من حلب بتاريخ ٥ صفر ١٠٣٧/١٦ تشرين الاول ١٦٢٧ عين القاضي للمدعوة فطمة بنت الشيخ محمد نصف حصة من قسم الشحم المعد لعمل الشمع الشحمي تأخذه من المسلخ ، اسوة بافراد طائفة الشماعين الذين يشتغلون الشمع الشحمي . وتم ذلك بحضور شيخ طائفة الشماعين ، الذي أمره القاضي بان يعطي المرأة حصتها يوماً بيوم ، كما هي عادة الشماعين بحلب (١٢) . وليس في النص ما يوحي بان فطمة كانت عضواً في طائفة الشماعين . كما ان ما اعطي لها كان نصف حصة ، في حين ان الشماع كان يأخذ حصة كاملة .

ولم يقتصر استعمال كلمة « طائفة » على التنظيم الحرفي اذ أطلقت أيضاً على طائفة دينية ، كما في شيخ طائفة اليهود ، او على جماعة من المقيمين الاغراب ، كما في شيخ طائفة المغاربة ، او طائفة عسكرية ، كما في طائفة عسكرية حلب . واستعملت الكلمة ، في مجالات اخرى ، لتدل على فئة اجتماعية تحترف الاختلال بالأمن ، كما في طائفة اشقياء العرب (اي البدو) وقطاع الطرق ، وطائفة الحرامية والسراق ، او طائفة السراقين . وفي مثال عن الطائفة الاخيرة ان امرأة اتهمت أخرى بسرقة اثني عشر قرشاً من جيبها في سوق الاروام بدمشق وانها التصقت بها وشقت الجيب . واعترفت المتهمة ، أمام القاضي ، انها من طائفة السراقين وتتخذ ذلك حرفة ودأباً (١٤) .

التركيب البنيوي للطائفة الحرفية

رأس الطائفة الحرفية شخص عرف عادة بالشيخ ، وقد اختاره أعضاء الطائفة ، وأقر اختياره ونصبه القاضي الشرعي الذي اصدر حجة بالواقعة سجلت في سجلات المحكمة . والعبارة التي استخدمت في السجل بهذه المناسبة تذكر ان القاضي نصب (فلانا) شيخاً ومتكلماً على الطائفة (الفلانية) . وكلمة « متكلم » تعني أن صاحبها يتكلم في مصالح الطائفة (١٥) . وفي بعض الحالات

اطلق على شيخ الطائفة الحرفية لقب باشي ، كما في طائفة القضاة التي عرف رئيسها بالقصاب باشي ، وأحياناً بالشيخ ، وفي طائفة المعمارية التي عرف رئيسها بالمعمار باشي . واطلق على رئيس طائفة الدباغين لقب اخي بابا ، وأحياناً بابا . وكلمة اخي مشتقة من العربية اخ التي اطلقت في الاناضول ، في مطلع التاريخ العثماني ، كما ذكر ابن بطوطة ، على الحرفي ، وجمعها الاخية . أما كلمة بابا فقد استخدمت في الاناضول ، في النصف الاول من القرن الثالث عشر ، للدلالة على الواعظ التركماني الشعبي .

والذين رافقوا الشيخ الى المحكمة ، حيث نصبه القاضي رسمياً ، كانوا في الغالب من المعلمين أو الاساتذة أو الاسطوانات في الطائفة ، وهم الذين أشير اليهم أحياناً باختيارية الطائفة . ويلاحظ ان بعض مشايخ الحرف ورثوا المشيخة عن آبائهم أو اخوتهم ، ومع ذلك وجب عليهم الحصول على موافقة اختيارية الطائفة باختيارهم للمشيخة ، وقام القاضي بتنصيبهم رسمياً . ووجب على الشيخ ان يكون ملماً باصول الحرفة ، وإذا تبين انه غير ملم بذلك أمكن لاعضاء الطائفة عزله رغم حسن اخلاقه . وقد طلب جماعة من طائفة الدباغين بدمشق من القاضي الموافقة على عزل شيخ طائفتهم السيد محمد بن السيد احمد البابا « لانه ليس له خبرة في احوال الدباغة وليس له وقوف على معرفة الكار وليس له قدرة على تعاطي أمور البابوية » وان ذلك سبب خللاً في مهنتهم . وقد تنازل السيد محمد عن البابوية ، اثر ذلك ، واختار افراد الطائفة بابا غيره نصبه القاضي (١٦) .

واشترط كذلك في شيخ الطائفة ان يكون رجل دين ، مستقيماً ، قادراً على أداء المشيخة ، صالحاً لها ، وان يكون الاعضاء راضين به . وأشير ، حين شغل منصب الشيخ ، الى ان المشيخة كانت محلولة بسبب وفاة الشيخ السابق ، أو عزله ، أو عجزه عن القيام بأمور المشيخة ، أو فراغه عنها برضاه . ويتم الفراغ في المحكمة . وفي بعض الحالات عين شيخ الطائفة ، التي شغرت مشيختها ، بموجب براءة سلطانية . وإذا ما ثبت للقاضي صحة البراءة نصب صاحبها في المشيخة (١٧) .

وإذا ما عارضت فئة من الحرفيين رأي الاكثرية في اختيار الشيخ ، أو خشي من قيام مثل هذه المعارضة ، اتفق الحرفيون المجتمعون في المحكمة على « ان من خالف منهم يفعل معه العقارة بما يستحق ، اتفاقاً مقبولاً » (١٨) . وأمكن للطائفة الحرفية أن ترفض تعيين شيخ لها ، كما حدث بالنسبة لطائفة المسالخية في حلب عام ١٦٠٨/١٠١٧ ، حين ادعت ان العادة القديمة الا يكون

مظاهر من التنظيم الحرفي في بلاد الشام في العهد العثماني

عليهم شيخ لان في تعيين الشيخ عليهم ظملاً لهم ومخالفة للعادة القديمة . ولما تأكد القاضي من صحة ذلك منع ان يكون شيخ لهم بدون رضاهم (١٩) .

وفي الحالات التي وجد فيها شيوخ فرعيون لتجمعات حرفية في صوايح (احياء) حلب ، مثلاً ، مثل السقراطية ، والمدينة ، وتحت القلعة ، والبياضة ، وبانقوسا ، وباب النيرب ، وباب النصر ، او في سوق فرعي ، كما في سوق العطارين ، او سوق الصابون ، فان اختيار شيخ الطائفة الفرعي كان يتم من قبل حرفي طائفته المحليين ، ولكن تنصيبه في المحكمة يتم بحضور شيخ الطائفة الرئيسية او قائم مقامه (٢٠) .

وليس من دليل على ان الشيخ تقاضى مرتباً من الطائفة . وكان يعيش في الغالب ، من عمله . ولكن هناك بعض الامتيازات المادية التي تمتع بها ، فقد ذكر ان طائفة المسالخة بدمشق التي كانت تابعة (يمقا) لطائفة القصابين دفعت لشيخ طائفة القصابين كل سنة عشرين قرشاً لقاء مال المشيخة (٢١) .

واختير شيخ الطائفة عادة من بين كبار الحرفيين في الطائفة الذين اطلق على واحداهم لقب استاذ (او استاد) ، وهي كلمة فارسية الاصل ، حورت احياناً الى كلمة اسطه . واشير اليه ايضاً بكلمة معلم العربية . ونظراً لأهمية هذا اللقب في المراتب المهنية ، ضمن الطائفة الواحدة ، فقد عرف اصحابه به . ومعلم الترفه هو الذي يحق له اقامة مشغل خاص به يعمل فيه الصانع والاجراء .

ويأتي بعد الاستاذ ، او المعلم ، في المرتبة المهنية ، الصانع . ولا نعلم فيما اذا كانت هناك مدد زمنية لابد للصانع من أن يلتزم بها قبل أن يرتقي الى مرتبة الاستاذ ، او المعلم ، أم أن اجادته المهنة ، بقطع النظر عن المدة ، هي وحدها الكفيلة بالانتقال به الى المرتبة العليا . ويبدو أن هناك استثناءات قد تدل على الالتزام بالتدرج المهني واجادة المهنة ، أو على انهيار القواعد المهنية ، اذ ذكر القدسي أن « من الصانع من يشد في النهار ذاته صانعاً ومعلماً » (٢٢) .

وشكل الصانع العدد الاكبر في الحرفة بالمقارنة مع عدد المعلمين والاجراء . وكانوا عماد العمل في الحرفة ، وتقاضوا أجراً عليه . وحاول المعلمون تأخير ترقيةهم الى رتبة معلم لتحاشي منافستهم لهم ، لانه يحق عندئذ للصانع الذي أصبح معلماً أن يكون له مشغله الخاص به . وكان على المعلم أن يدفع اجرة مكانه ومصروفها ، بما في ذلك تصليح عدة الشغل ، ولا يخص الصانع من ذلك شيء (٢٣) .

وفي أسفل السلم المهني يأتي المبتدئ أو الاجير ، وهو عادة بالغ . وكان استخدامه يتم من قبل المعلم ، بموجب عقد رسمي ، والمثال التالي يوضح ذلك: استأجر السيد محمد الحلبي الطباع ، لدى القاضي الشافعي بدمشق ، ابن اخيه البالغ ، عبد الرحمن ، فأجره نفسه باذن الحاكم ليشغل عنده في صناعة الطباعة ، لعقدين كاملين ، مدة كل منهما ثلاث سنوات ، تبدأ في يوم العقد . وكان اجر عبد الرحمن اليومي ست قطع فضة مصرية ، اربعة منها يحتفظ بها المستأجر السيد محمد الحلبي لتغطية نفقات عبد الرحمن من مأكوله ومشروبه وزينته وسائر لوازمه التي لا بد منها ، والمصريتان الباقيتان تدفعان الى عبد الرحمن . وتم العقد بحضور والد عبد الرحمن (٢٤) . وفي مثل آخر بقي الاجير في عمله مدة خمس سنوات ، ودفع له ، بالاضافة الى نفقاته اليومية ، مصريتان يومياً (٢٥) .

وهناك اشارات الى وجود رئيس أعلى للطوائف هو شيخ المشايخ ولكن وثائق المحاكم الشرعية قلما اشارت الى وجوده الفعلي وممارسة صلاحياته . وقد ذكر المحبّي (٢٦) ان السيد محمد بن السيد محمد كمال الدين بن عجلان الدمشقي الميداني الشافعي ، المتوفى عام ١٥٩٦/١٠٠٤ ، كان شيخ مشايخ الحرف . ولكنه اهتم ، كما يبدو ، باقامة الذكر بانتظام اكثر من عمله كحرفي . ويقول المحبّي : « وربما كان يأكل من كسب يمينه ونسج الحرير » . ومما يرجح ان عمل شيخ المشايخ لم يكن مهنيّاً بقدر ما كان شعائريّاً يتعلق بالاشراف على اقامة الاحتفالات والطقوس الرمزية بين اعضاء الحرف قول المحبّي : « وشيخ المشايخ هو الذي يعقد الشد والعهد لاهل الصنائع » . وبهذا المعنى أشار اليه القدسي في « نبذة تاريخية في الحرف الدمشقية » ، في الربع الاخير من القرن التاسع عشر . وذكر القدسي (٢٧) ان شيخ المشايخ ، السيد احمد افندي منجك العجلاني ، لم يكن على شيء من صناعة أو حرفة ، وان هذه الرتبة موروثّة في آل عجلان الذين اختصوا أيضاً بنقابة الاشراف ومشيخة الطرق الصوفية ، وان شيخ المشايخ يرأس ، عملياً أو نظرياً (وفي هذه الحال ينيب عنه النقيب) حفلة الشد التي يجرونها للمبتدئ أو الاجير عند انتقاله من درجته الى درجة صانع ، أو للصانع عند ارتقائه الى درجة معلم . كما أنه يبارك شيخ الحرفة عند انتخابه . ويكون الشد يربط المرشح « بالمحزم » ، وتلى الفاتحة عدة مرات . أما بالنسبة للمسيحي فتلى الصلاة الربانية ، وبالنسبة لليهودي فالوصايا العشر . ويزود المشدود بالنصائح الاخلاقية والمهنية . ويعين له اب بالكار يكفله من الخلل ، ثم يولم للحاضرين (٢٨) . أما قول القدسي (٢٩) ان شيخ المشايخ ، قبل عهد السلطان عبد المجيد (١٨٣٩ - ١٨٦١) ، كان يتمتع بسلطة كبيرة على مشايخ الحرف

مظاهر من التنظيم الحرفي في بلاد الشام في العهد العثماني

وافرادها فيلقى من يسىء منهم في السجن ويضربه فليس هناك ما يؤيده في وثائق المحاكم الشرعية التي هي المصدر الرئيس لمثل هذه الاعمال .

والى جانب هذه المراتب المهنية في الطائفة الحرفية وجدت وظائف عدة ، بعضها استمر طوال العهد العثماني تقريباً ، مثل وظيفة النقيب ، وبعضها اندثر او استحدث على فترات . وقد تمتع النقيب بسلطة كبرى في الطائفة الحرفية ، وناب أحيانا عن شيخ الطائفة . كما أنه حضر تنصيب شيخ الطائفة في المحكمة . ومما يدل على أنه كان حرفياً في الاصل اشتراكه مع اعضاء الطائفة في اختيار شيخ لهم . ويعين النقيب في وظيفته من قبل القاضي بناء على اقتراح شيخ الطائفة المعنية (٢٠) . واختير عادة من بين المعلمين في الطائفة . ووجد النقيب على مستوى الطائفة الرئيسة في المدينة ، وعلى مستوى طائفة الحي أو الصايح ، التي هي جزء من الطائفة الرئيسة التي تنتظم المدينة ككل (٢١) ، وكان شيخ الطائفة يكلف النقيب بالسهر على حسن انتظام قواعد الطائفة واخلاق افرادها . ومما يدل على علو شأن النقيب في الطائفة أنه كان يذكر ، بين حرفيي الطائفة اذا ما شخصوا الى المحكمة ، بعد الشيخ مباشرة . وعلى غرار شيخ المشايخ ، وجد للنقباء نقيب أعلى ، عرف بنقيب النقباء . وذكر أحمد البديري الحلاق (٢٢) أن الشيخ عبد الرحمن بن الشيخ محمد الحلاق القادري ، صاحب الحلقة في الجامع الاموي ، والمتوفى في ٢٦ ربيع الاول ١١٥٦ / (٢٠ أيار ١٧٤٣) ، كان نقيب النقباء في دمشق على الحرف والصنائع والطرق . ويدل جمع نقيب النقباء بين يديه السلطة على نقباء الحرف والصنائع والطرق على اهميته وعلى ارتباطه بالطرق ، مما يظهر الرابطة التي كانت تجمع بين الطرفين الصوفية والحرفيين . وذكر القدسي أن أهمية النقيب قد نقصت كثيراً في عهده (٢٣) .

والى جانب النقيب وجد منصب اليكيت باشي ، والكلمة مشتقة من يكييت التركية ، وتعني فتى ، أي الرجل الاخلاقي والكريم ، وباشي تعني الرئيس . وعين اليكيت باشي في الطائفة من قبل الشيخ ، الذي اشرك معه أحيانا ، في عملية الانتخاب ، كبار اعضاء الطائفة ، وروعي في اختياره ان يكون أهلاً لعمله ، قادراً على القيام به على الوجه المرضي . وذكر ان طائفة العطارين اليهود بحلب ، وهي تابعة لطائفة العطارين في المدينة ، نصب القاضي عليها يكييت باشي يهودياً ، وذلك بطلب من شيخ طائفة العطارين وعدد من اعضائها مسلمين ويهوداً (٢٤) ، وناب اليكيت باشي ، أحيانا ، عن شيخ الطائفة في الامور المتعلقة بالطائفة (٢٥) ، ومع ذلك ، كان النقيب أكثر حضوراً وربما استمراراً من اليكيت باشي ، بدليل أن القدسي لم يشر اليه . وربما تغيرت تسميته فيما

..... د. عبد الكريم رافق

بعد . وقد ذكر القدسي « الشاويش أو الجاويش » (٢٦) ، الذي ينتخبه الشيخ واعضاء الطائفة ، ويقوم ببلاغ أوامر الشيخ الى الحرفيين . ولم يرد لهذا الموظف ، بهذا الاسم ، ذكر في الوثائق الشرعية التي اعتمدها .

وذكرت الوثائق صاحب رتبة آخر هو الاونجي باشي ، بالنسبة لطائفة طحاني الخاص بحلب ، ولعله شيخ هذه الطائفة المتفرعة من طائفة الطحانيين (أو الطحانة) . وقد نصب ، على غرار النقيب واليكيت باشي ، من قبل القاضي ، بناء على طلب شيخ طائفة الطحانيين وكبار أفرادها ، وروعي فيه أن يكون مستقيماً ديناً ، قادراً على اداء عمله . وعهد اليه دون غيره ، باخراج الكماجة (لفظة فارسية الاصل ، جمها كماج ، وتعني الخبز المستدير السميك) المعروك ، والسنبوسك ، والخبز الافرنجي ، والحلاوة . وإذا اخرج الكماجه شخص آخر ، غير الاونجي باشي « تفعل معه الحقارة التامة » ويغرم الف عثماني فضة (وفي مثال آخر خمسة الاف عثماني فضة) ، بطريق النذر للجامع الكبير الاموي بحلب (٢٧) .

وذكرت وظيفة أخرى ، بالنسبة لطائفة الدالين بحلب ، وهي كتخدا (أو كاخيا) الطائفة ، الذي حضر فراغ شخص عن وظيفة الدلالة لابنه (٢٨) . والكلمة تعني المساعد ، وربما كان أحد مساعدي شيخ الدالين .

وورد ذكر وظيفة « مقدم » في حلب في عام ١٥٩١/٩٩٩ ، وتعني في هذا المثال ، رئيس سبع طوائف ، لكل منها شيخها ، وتعني بالخدمات ، مثل العتالين ، والحمالين ، والعكامين ، والسقاين ، والبغالة . وكان أحد الاشخاص المسمى تقي الدين ابن الحاج محمد ، قد حصل على براءة سلطانية للحصول على مقدمة هذه الطوائف من صاحبها الحاج احمد بن محمد . ولكن القاضي ، بناء على طلب عدد من اعضاء هذه الطوائف ، ابقى الحاج احمد بن محمد في مقدمة الطائفة لانه « رجل مستقيم في امور المقدمة المذكورة خير باحوالها من غيره وهو اولى بها من تقي الدين » (٢٩) . وقد شاعت وظيفة « مقدم » في العصور التي سبقت الفترة العثمانية ، ولكنها لم تستمر ، كما يبدو ، بدليل عدم ورودها في الوثائق ، بعد القرن السادس عشر .

العلاقة بين الطوائف الحرفية

ارتبطت احيانا اثنتان أو أكثر من الطوائف الحرفية ببعضها ، نظراً لتكامل الحرف المعنية ، أو لاعتماد حرفة على أخرى ، أو للمشاركة في تأدية الضرائب

الجماعية . فطائفة الحماميين ، مثلا ، كانت على علاقة وثيقة بطائفة الحلاقين . وقد تم الاتفاق بين الطائفتين في حلب في ٢٨ محرم ١٠٥٥/٢٦ آذار ١٦٤٥ ، على أن من دخل الحمام وأعطى اجرة الحمام واجرة الحلاق معا الى معلم الحمام ينقسم ذلك بين الحمامي والحلاق بالتساوي ، وإذا أعطى اجرة الحمام الى الحمامي وحده واجرة الحلاقة الى الحلاق وحده فلا يعترض احدهما على الآخر ولا يطلب منه شيئا (٤٠) . وقد اتفقت طائفة الأبارين (صانعي الابر) مع طائفة المدادين للشريط على أنه اذا جاء الجلاب بالشريط تأخذ الطائفة الاولى الشريط الرفيع ، والثانية الشريط الغليظ (٤١) . وكانت العادة أنه اذا جاء اليقطين الجلب الى حلب للبيع قسم بالتساوي بين طائفة البقالين وطائفة الخضرية . وفي احدى المرات تخلت الطائفة الاولى للثانية عن حصتها (٤٢) .

وفي عدد من الحالات عين شيخ واحد لمجموعة من الطوائف المتقاربة في الاختصاص ، مثل طائفة الطبّاحين وطائفة الشوايين وطائفة السنبوسكيين التي عين لها في حلب في ٨ محرم ١٠٣٩/٢٨ آب ١٦٢٩ شيخ واحد . ويبدو أن هذا الشيخ المشترك بين الطوائف الثلاث لم يبلغ شيخ كل طائفة منها ، كما تدل وثائق تلك الفترة . وفي حالة اخرى عين شيخ على طائفة السيوفية والسكاكينية والقواسين والخنجرية والتروسية (٤٣) . ومع ذلك وجد شيخ لطائفة السيوفية فقط (٤٤) . ولا ندرى فيما اذا كان الاختصار هو سبب عدم ذكر الحرفيين الآخرين الى جانب طائفة السيوفية ، التي كانت الاشهر ، أم أن الحرف الاخرى قد وسعت أعمالها وحق لها تعيين شيخ لكل منها ، كما حدث في الواقع ، اذ ذكرت طائفة السكاكينية على حدة .

وضمت بعض الطوائف الحرفية أكثر من مهنة مثل طائفة الحلاقين والجراحين التي كان لها شيخ واحد . ومن المعروف أن الحلاق كان يقوم ببعض الاعمال الطبية ، ولكن ليس من الضروري أن يقوم الجراح بالحلاقة ، وما يؤيد هذا أن عددا من افراد هذه الطائفة حملوا لقب جراح فقط (٤٥) . والشائع أن تذكر طائفة الحلاقين على انفراد . ويبدو أن اضافة الجراحين اليها هو اما استطراد بحكم عمل الحلاق في الطب - والحلاقون هم الكثرة - أو أن الجراحين لم يتمكنوا من ايجاد طائفة خاصة بهم فاندمجوا مع الحلاقين . وذكر فما بعد ، وجود دكان لصناعة الطب قائمة بذاتها (٤٦) . واستمر الحلاقون مع ذلك في تعاطي التطبيب وسمحت لهم السلطة في دمشق في ٦ شعبان ١٢٦١ / ١٠ آب ١٨٤٥ بالاستمرار في بيع العلق ، على أن يحدد سعر العلقة الواحدة في الصيف بأربع بارات وفي الشتاء بخمس بارات .

وهناك طوائف حرفية تبعت الواحدة منها الاخرى ، وكان للطائفتين شيخ واحد او احتفظت كل طائفة بشيخها . فقد كانت طائفة الصاغرجية (تصنع جلود الادوات الموسيقية) تابعة لطائفة الدبساغين (٤٧) . وكان لشيخ طائفة الدبساغين ، المعروف بأخي بابا ، في فترة من الفترات ، سلطة على عدد من الطوائف ، مثل الخفافين ، وبائعي النعال ، والسيوفية ، والحيالك ، والنهودية ، واللبادية ، والخياطين ، ربما لان هذه الطوائف استخدمت الجلد بكميات متفاوتة ولاستعمالات متباعدة . وفي مثال آخر قرر القاضي شيخ طائفة الخياطين بحلب شيخا على طائفة العرقبانية (صانعي القبعات) فيها ، وذلك بطلب عدد من اعضاء الطائفتين (٤٨) .

وعرفت الطائفة التي تبعت طائفة اخرى ، رغم ان لكل منهما شيخاً مستقلاً ، بانها يقيم لها ، وهذه كلمة تركية ، تعني المساعدة . وكانت الطوائف التابعة لبعضها ذات علاقة في الانتاج . والهدف الرئيسي من التبعية هو المساهمة في الضرائب . مثال ذلك ان طائفة المسالخية في دمشق كانت يقيم طائفة القصابين واقتضى ذلك ان تدفع الطائفة الاولى عشرين قرشا في السنة ، عرفت بمال المشيخة ، الى القصاب باشي ، وذلك بالاضافة الى ثلاثين قرشا مساهمة في ضريبة الجيش (مال العرضي ، او الاوردي ، من اوردو التركية ، وتعني الجيش) (٤٩) . وفي مثال آخر حاولت طائفة القاوقجية (التي تصنع القبعات) ان تلحق بها طائفة العرقجية (التي تصنع الطواقي) والتي كانت ملحقة منذ القديم بطائفة الخياطين ، واسهمت معها بدفع الضرائب . وكان هدف طائفة القاوقجية ان تجعل طائفة العرقجية تسهم معها بدفع الضرائب ، نظرا لان طائفة الطواقي الزربا ، وطائفة الزربابية ، وطائفة الطواقي المخمل ، التي كانت في السابق ، تسهم مع القاوقجية في دفع الضرائب ، قد بطلت وأن لاقدرة لطائفة القاوقجية على دفع الضريبة بمفردها ، ولهذا طالبت بضم طائفة العرقجية اليها ، ولكن القاضي رفض ذلك لانه يخالف العادة القديمة (٥٠) .

وقد اعتمدت التقاليد ورغبة افراد الطائفة في تقرير ما اذا كان يحق لشيخ احدى الطوائف ان يضم طائفة اخرى الى مشيخته . وقد حدث ان شيخ طائفة رامي البخور قد وجهت اليه مشيخة طائفة مداحي الرسول وحكوية السير النبوية . وحين احتج افراد الطائفة الاخيرة على ذلك وافقهم القاضي ، وقرر لهم شيخاً خاصاً بهم (٥١) .

وبالاضافة الى تحمل الطائفة التابعة (اليمق) مسؤولية المساهمة في الضرائب مع الطائفة المتبوعة ، فقد اقتضت التبعية ايضا ان ترضى الطائفة المتبوعة امور

مظاهر من التنظيم الحرفي في بلاد الشام في العهد العثماني

ومصالح الطائفة التابعة لها لما فيه نفع الطائفتين . وقد أكد على ذلك القاضي حين اعترف افراد طائفة البوزجية انهم تابعون (يمع) لطائفة الاقسمارية منذ القديم (٥٢) . ونستدل من ذلك على ان الطائفة الكبيرة كانت تسيطر على الطائفة الصغيرة ، ضمن فصيل واحد ، مع ما يترتب على ذلك من تبعية اقتصادية .

اهمية الطوائف الحرفية اقتصادياً واجتماعياً وادارياً

طبقت الطوائف الحرفية مبدأ توزيع العمل والتخصص الدقيق ، وهي من صفات الاقتصاد المنظم . ففي مجال الصباغة، مثلاً ، وجد صباغون متخصصون بالصباغ الاحمر ، وآخرون بالازرق الفامق (الكحلي أو النيلي) ، وآخرون ببقية الالوان . وفي حين اقتصر عمل هؤلاء ، في الغالب ، على صباغة الخام ، وجد صباغون آخرون يصبغون الحرير الملون . ولكل تخصص طائفته وشيخه . ويدل ذلك على رواج عمل الصباغين ، وبالتالي تصنيع الخام والحرير محلياً ، للاستهلاك الداخلي وللتصدير . ووجد بين فتالة الحرير طائفة متخصصة بقتل الحرير الشطي والابلق والبلدي ، وأخرى متخصصة بقتل الحرير العنداري ، وثالثة بالقتل على الدولاب الكبير ، الى جانب طائفة فتالي الحرير ذات الصفة العامة .

ووجد تخصص في العمل على اساس جغرافي ، فهناك مثلاً شيخ القصابين بصايح السقطية بحلب ، وآخر بصايح باب النصر ، وثالث بصايح باب النيرب ، ورابع بصايح بانقوسا في الوقت نفسه . وعين القاضي في ١٥٨٨/٩٩٦ شيخ القصابين بصايح السقطية شيخاً اعلى على القصابين بالصوايح الثلاثة الاخرى، بحضور مشايخ هذه الصوايح ورضاهم به (٥٣) . ويتبع هؤلاء المشايخ القصاب باشي ، أي شيخ القصابين ، المسؤول عن طائفة القصابين بعامه في حلب .

ووجدت طوائف جمعت بين التخصص والتوزيع الجغرافي ، مثل طائفة دلالي العفص بخان الصابون بحلب . وهناك طائفة دلالي الخام الكلزي بحلب ، وطوائف دلالين في عدد من الاسواق الرئيسية في المدينة ، الى جانب طائفة الدلالين العامة . ولكل طائفة شيخها .

ووجدت طوائف خاصة بالمسلمين ، او بالمسيحيين ، او مشتركة بينهم . وضم اختيارية الطائفة ، التي شخّصت الى المحكمة لابلاغ القاضي اختيارها لمن ينصب شيخاً عليها ، ممثلين لاعضاء الطائفة على اختلاف مذاهبهم . وهذا يبين

القاسم الحرفي المشترك الذي جمع بين الحرفيين هؤلاء ، واولوية المقدرة والخبرة الحرفية على أي شيء آخر . وقد اتفق ، مثلاً ، في طائفة القصارين بحلب ، في ٦ ذي القعدة ١٠٣٦ / ١٩ تموز ١٦٢٧ بمعرفة شيخ الطائفة وافرادها والقاضي ، ان ما يتجمع لديهم من الخام والشاش والمناديل والدعى للقصر يكون بينهم ستة اقسام : اربعة منها للمسلمين واثنان للمسيحيين (٥٤) . ثم تقرر بعد شهرين ، في ٥ صفر ١٠٣٧ / ١٦ تشرين الاول ١٦٢٧ ، ان يكون القصر بينهم بالسوية (٥٥) .

واذا ما وجدت طائفة على اساس مذهبي ، مثل طائفة اليهود العطارين بمدينة حلب ، اشترك شيخ طائفة العطارين وممثلون عن اعضائها ، على اختلاف مذاهبهم ، في اقتراح تعيين يكيث باشي على طائفة اليهود العطارين هذه (٥٦) . ولا نعلم فيما اذا كان لهذه الطائفة شيخ خاص بها . وفي مثال آخر سمح للقصابين من طائفة اليهود بزيادة درهم على السعر الذي يبيع به القصابون المسلمون ليدفعوا هذه الزيادة الى فقراء اليهود وصعاليكهم . ووافقت طائفة القصابين على ذلك ، ولم يعارض المحتسب (٥٧) . ولكن لم يسمح القصاب باشي بحلب والقاضي للقصابين اليهود بذبح الاغنام خارج المسلخ ، خلافا للعادة المتبعة ، حيث تدمغ الاغنام بالدمغة السلطانية ويترتب عليها رسم (٥٨) . وفي مثال آخر نصب القاضي يهودياً شيخاً على طائفة مروبيصي الفضة والذهب من اليهود بحلب (٥٩) . ولا نعلم فيما اذا شاعت هذه المهنة بين المذاهب الاخرى .

ووجدت طوائف خاصة بالنزلاء ، العرب وغير العرب ، او مشتركة بينهم وبين السكان المحليين . فهناك طائفة خاصة بالمغاربة في حلب ، في القرن السابع عشر ، لها شيخها ونقيها . وعمل افرادها اكثر شيء في الحراسة وكسعاة (٦٠) . ووجدت في دمشق ، في القرن الثامن عشر ، طوائف متعددة للمغاربة ، مبنية على اساس جغرافي ، نظرا لكثرة عدد المغاربة المقيمين في دمشق للمجاورة ، او العلم ، او العمل كمسلحين . ووجد لكل طائفة شيخها ، وترأس جميع الطوائف شيخ المشايخ . وهذه الطوائف هي : الفاسية ، الجزائرية ، السوسية ، التونسية ، الطرابلسية ، الدراوية ، والمراكشية (٦١) .

وقد وجد بين الخفافين في حلب (الذين يبيعون الحذاء الخف) ، طائفتان منقسمتان حسب هوية افرادهما ، فهناك طائفة الخفافين الاروام (اي الاتراك) ، بحلب ، وطائفة الخفافين من ابناء العرب بحلب (٦٢) . ومن الطوائف التي اشترك فيها النزلاء العرب مع السكان المحليين طائفة السقاين بحلب ، الذين يأخذون

الماء من قسطل الطواشي داخل باب المقام . وقد ضمت ، حوالي منتصف القرن السابع عشر ، ثمانية افراد ، اربعة منهم مصريون واربعة حلبيون (١٢) .

وقد تحكمت الطوائف الحرفية في نوعية الانتاج ومواصفاته وجودته واجرته واسعاره . مثال ذلك ان افراد طائفة الحريرية بحلب اتفقوا ، في اوائل القرن السابع عشر ، على ان ينتجوا نوعين من الاثواب المعروفة بالعنابائية : الاول يتكون من عشرة الاف طاق ، وطوله عشرة اذرع ، وعرضه ذراع ، والثاني من ثلاثة عشر الف الى اربعة عشر الف طاق ، ووزن الثوب من هذا النوع مائتا درهم . واذا نقص طول كل ثوب من النوعين تحسب قيمته وتسقط من ثمنه ويعمل مع صاحبه ما يستحقه بحسب الشرع الشريف وبمعرفة الشيخ او من يقوم مقامه ، ولا يكون للمحتسب دخل في ذلك (١٤) . وفي مثال آخر ، اتفق شيخ طائفة الحريريين وشيخ طائفة العقادين مع شيخ طائفة القتالين للحرير الشطي والابلق والبلدي على ان الحرير الذي تفتله الطائفة الاخيرة بالاجرة تكون اجرته قرشين لكل الف درهم . واذا صبغ الحرير باللون الازرق ، بعد القتل ، يصبح وزن المائة درهم ، بعد الصبغ ، ستة وسبعين درهماً . واذا اصبح الوزن اقل من ذلك يكون الحرير مغموشاً بالزيت ، ويؤخذ النقص من القتال الذي تفتله ، ويعامل بما يستحق من الاهانة والحقارة (١٥) . وفي مناسبة اخرى ، اتفقت طائفة الحياك بحلب ان يكون طول القوط الزرقاء التي تشتغلها ثلاثة اذرع الا ربعاً ، بالذراع الحلبى ، وعرضها ذراعان الا ربع ذراع ، وان يكون اعتبار ذراعها بعد بلها بالماء وجفافها ، وان تكون قيمة الواحدة منها سبعة واربعين عثمانياً فصيلاً ما دام القرش يومئذ مائة وخمسون عثمانياً ، ومن خالف يفعل معه أنواع الحقارة (١٦) .

وقد اتفق افراد طائفة الغرابلية والمناخية بحلب ، برضاهم وحسن اختيارهم ، من غير اكراه ولا اجبار ، على ان يكون شغل المناخل على خمسة طوق ، على العادة القديمة ، ومن خالف منهم واشتغل غير ذلك تعمل معه الحقارة ويفرم بالف عثماني لجهة وقف الجامع الكبير الاموي بحلب (١٧) .

وفي مثال آخر ، شكت طائفة القوافين بدمشق ، في مطلع القرن الثامن عشر ، من ان طائفة البقارين (الذين يدبغون جلود البقر) تمتنع عن اعطائهم ما يحتاجون اليه كل يوم من النعل والكسلا ، ولا تأخذ بعين الاعتبار عامل القلة والكثرة . واعترف البقارون بانهم يبيعون للمدعين كل يوم ستة جلود ويبيعون الباقي لغيرهم . وصدرت فتوى آنذاك تمنع القوافين من اجبار البقارين على

رفع مخصصاتهم من الجلود ، والتزم القاضي بذلك (٦٨) . واللجوء الى الفتاوى في حل منازعات الطوائف الحرفية كان أمراً شائعاً ، وإذا كان الخلاف عميقاً وشمل عدة طوائف استشير مفتيو جميع المذاهب في الامر (٦٩) .

وكانت المواد الخام المستوردة توزع على العاملين فيها ، من ابناء الطائفة ، من قبل شيخهم . فقد اتفق النجارون بحلب ، في مطلع القرن الثامن عشر ، على انه اذا جاء الجلاب بالخشب والدفوف الى سوق الخشب فيوزعها شيخهم على اهل الحرفة بحسب ما تتحمله حالهم . واذا اخذ الحكام من شيخهم خشباً ودفوفاً وما اعطوه ثمنها فيوزع الثمن على اهل الحرفة برضاهم . واذا طلب الجلاب مالا بطريق السلفة فيأخذه الشيخ منهم ، على مقدار تحمل حالهم ، ويدفعه الى الجلاب ، وان لا احد من اهل حرفة النجارين يعين ثمن الخشب والدفوف سوى الشيخ (٧٠) . ومما يؤيد ان لا المحتسب ولا القاضي كان لهما حق تسعير الحاجيات ان طائفة البساتنة بحلب احتجت على المحتسب الذي طالبهم بتسعير القرنيط والملفوف واجابوا بانه لم تجر العادة بتسعير ذلك في المحكمة . وايدهم القاضي ، ومنع المحتسب من معارضتهم (٧١) .

ونلاحظ في عمل الحرفيين انه كان فردياً في الغالب ، ونادراً ما اجأوا الى الشركة فيما بينهم . وفي احدى الحالات اتفق افراد طائفة صباغي الحرير الملون بدمشق ان الحرير الذي يأتيهم للصبغة يصبغونه بطريق الشركة ، ثم تقسم الاجرة بينهم . ولكنهم عدلوا عن ذلك ، فيما بعد ، لاسباب لم يبينوها . واتفقوا ان يشتغل كل منهم على حدة ، ومهما حصل له من اجر يتناوله لنفسه (٧٢) .

ويبدو ان الاتجاه نحو فردية العمل قد شجعتة الانظمة الحرفية وطبقه القاضي ومثال ذلك ان القاضي طلب من طائفة المخومين للسروج (الذين يعملون السروج من جلد الجمل) « ان يشتغل كل واحد منهم في دكان مستقل ولا يشتركون في العمل لان فيه ضرراً للمسلمين » (٧٣) . وهذا يعني ان تبقى امكانات الحرفي محدودة وعلاقاته مع زملائه متوازنة . وليس من مجال ، والحالة هذه ، لوجود تضخم في الثروات ، وبالتالي لحدوث تفاوت كبير فيها ، ولكن التفاوت يبقى قائماً بين مستوى ثروات المعلمين ومستوى ثروات الصناع ، ضمن الطائفة الواحدة . صحيح ان الصانع يترقى ليصبح معلماً ، في منظور مهني صرف ، ولكن افتتاح حانوت خاص به ، كمعلم حرفة ، يقتضي رأس مال لا يستهان به لشراء خلو الحانوت ، بما في ذلك الادوات اللازمة لعمله ، وهذا ما عرف بالتركية (كدك) .

وقد عرف الكدك في دمشق ، في حوالي منتصف القرن التاسع عشر ، بأنه « جميع عدة الدكان المعير عنه بالكدك » (٧٤) وفي بعض الفترات وبعض المدن اقترنت كلمة خلو بكدك ، او استخدمت لوحدها وتضمنت معنى الكدك (٧٥) . ونظراً لهذه الصعوبات والاعباء المادية فقد صعب أحياناً على الحرفيين الفقراء الارتقاء في سلم المهن ، واقامة مشاغل خاصة بهم .

وعارض المعلمون ، في بعض الاحيان ، في زيادة أجور الصناع الذين عملوا لديهم ، مثال ذلك ان الصناع في عمل القطنيات الحلبيات ابتهلوا الى القاضي لينصفهم من معلمهم الذين اعطوهم اجرة الثوب ثلاثين قطعة فضة . وذكر الصناع ان هذه الاجرة « دون اجرة المثل يومئذ واطهروا الحيف وتظلموا بسبب ذلك » ، وحضر الى المحكمة اهل الخبرة وشهدوا ، بمواجهة المعلمين ، ان اجرة الثوب الواحد لصانعه اثنتان وثلاثون قطعة . فأمر القاضي المعلمين بدفع ذلك (٧٦) . ولكن في مثال آخر ، بعد قرنين من الزمن ، رفض بعض المعلمين في صناعة الكريشه طلب الصناع زيادة اجرة السدا عما يأخذوه ، وهو ثمانية قروش ، لانه لا يفي بمعيشتهم ، وحكم القاضي انه ليس للصناع اجبار المعلمين على دفع الزيادة ، وخير الصناع بين العمل عند هؤلاء المعلمين او ترك خدمتهم .

ولما كانت المبادرة الحرفية فردية في الغالب نجد ان المشاغل تقوم في حانوت (دكان) مستقل ، او قائم في خان ، او في دار . وينطبق ذلك على المصايغ وأماكن النسيج . وبما ان استيعاب الحانوت او الدار كان محدوداً ، فان انوال النسيج ، مثلاً ، لدى شخص واحد ، لم يتجاوز وسطها العشرة انوال . وفي حين نجد أماكن بيع السلع مجمعة في أسواق متخصصة ، يرأس كلا منها شيخ السوق ، نلاحظ ان معظم حوانيت تصنيع الحاجيات كانت متفرقة في انحاء المدينة . ولم يكن هناك ، مثلاً ، حي للمصايغ ، او للحياكة ، على غرار سوق الحرف ، او سوق القطن ، او سوق القوافين . ولكن بعض الطوائف ، التي تصنع وتبيع في ان ، مثل الصياغ ، او السيوفية ، او السروجية ، فلها أسواق خاصة بها . وتجمعهم في مكان معين اقتضته ، عادة ، دواعي الامن ، او تيسير التجارة ، لتمكين الشاري من الحصول على حاجياته في مناطق متقاربة . كما ان شيخ الطائفة يسهل عمله اذا كان افراد حرفته منتشرين في منطقة محددة وذلك لتمكنه من مراقبة عملهم وجودة انتاجهم ، ومن جمع الضرائب منهم . وقد حاول بعض افراد طائفة الزراميزية بحلب الخروج على العادة المتبعة التي تقضي ببيع انتاجهم في السوق المخصص لهم ، قرب الجامع

..... د. عبد الكريم رافق

الكبير الاموي بحلب ، واخذوا يبيعونه خفية في الازقة والمقاهي . وحين تبين لباقي افراد الطائفة ان ما يباع في هذه الاماكن سيء الصنع وسيء الى مهنتهم ككل نبه القاضي ان على من يشتغل بصناعة الزراميزية الا يبيع في غير السوق المخصص لها على العادة القديمة الجارية (٧٧) .

وقد حصر عمل الدباغين في منطقة معينة لان ذلك يقتضي تواجد عدد من الخدمات القريبة ، مثل المسلخ للتزود بالجلود ، والمياه لفسلها . كما ان الروائح الناتجة عن العمل ، وما يلحق بها ، يحسن حصرها في مكان معين . لذا كان مركز الدباغات في دمشق ، حتى فترة قريبة ، في باب السلام ، حيث توافرت الشروط اللازمة لذلك (٧٨) . وحين تعاطى أحد الدباغين الدباغة بداره ، بمحلة القبيبات بدمشق ، احتج الدباغون ، وثبت لدى القاضي ان ذلك مخل بنظام الحرفة ومضر بأهلها لما فيه من اختلال قواعدهم . فمنعه القاضي من تعاطي حرفته خارجا عنهم (٧٩) . وحدث مثل ذلك في حلب ايضا (٨٠) . وانتقال الدباغات من منطقة الى اخرى ، اكثر بعداً عن اطار المدينة ، يعتبر مؤشراً لنمو المدينة العمراني (٨١) .

وبعض الحرف تقتضي الانتشار لا التجمع ، مثل طائفة البارودية التي لا تتواجد في سوق السلاح ، حيث تجمع في الاصل صناع السلاح الابيض الفولاذي ، لان وجود البارود في مكان واحد يجعل خطورة الانفجارات قائمة ، لذا نرى بאתمي البارود موزعين في مناطق متباعدة .

وفي مجال الخدمات ، كما في مجال الانتاج والتسويق ، روعي الاختصاص وتقسيم العمل . فهناك ، مثلاً ، دلالون وقبانيون لسلع معينة ، وفي اماكن جغرافية معينة . وقد وجد في طائفة الطوافة (الباعة المتجولين) من اختص ببيع الفستق البلدي ، ومن اختص ببيع الفستق الجلب (٨٢) . وفي طائفة الحمالين وجد تخصص في مناطق العمل ونوعيته . فقد اتفق ، في حوالي منتصف القرن السابع عشر ، ان يختص شيخ طائفة الحمالين بدار الوكالة بباب الجنان بحلب ، يحمل ماء الليمون ، بينما اختص بقية الافراد في الحمولة الاخرى ، ولم يتدخل فريق منهم في عمل الاخر (٨٣) . وكانت طائفة العتالين متخصصة بحمل احمال طائفة الافرنج بحلب ، وعارضت ان يخالطها أحد من الخارج في عملها (٨٤) .

وحرص اصحاب كل طائفة على منع العناصر الغريبة من تعاطي حرفتهم . والهدف من ذلك ضمان حسن الانتاج ، واستئثار بالارباح ، ومشاركة

مظاهر من التنظيم الحرفي في بلاد الشام في العهد العثماني

جميع أعضاء الحرفة في تحمل الضرائب الجماعية . وقد احتج جماعة من طائفة الدباغين لجلود الحور بدمشق ضد ممارسة احد النطايعين (الذين يدبغون الجلد ويصنعون الاطباق منه) (٨٥) لحرفتهم لانه « لم يتقدم للمدعي المزبور تعاطي الصناعة المزبورة بينهم ، ولم يتقدم له اخذ قسم من الحور المزبور وان العادة القديمة والقاعدة المستمرة بينهم على ان ساير الحرف لاتدخل صناعتهم المزبورة ... ولم يتقدم لاجنبي الدخول في صناعتهم المزبورة وان صدر ذلك فيحصل الخلل لهم في الصناعة » . وقد وافقهم القاضي على ذلك (٨٦) .

وحافظت الطوائف ، في المجال الاجتماعي ، على بعض المميزات انسائدة في المجتمع . كما انها ، بتنظيماتها واخلاقيتها المهنية ، قد ساعدت على تطوير مستوى الاخلاق بعامة . وبهذا لعبت الطوائف دورا فاق الى حد كبير ، دور المحتسب ، الذي تضاعف شأنه في بلاد الشام في العهد العثماني ، وغاب في كثير من الاحيان عن الوجود .

وقد طبعت الحرفة حياة الحرفي بطابعها ، ولصق اسمها به حتى غدا كنية له . ونظراً لان الابن ، في غالب الاحيان ، كان يتعلم حرفة ابيه فقد لصق اسم الحرفة بالاسرة ككل ، مثل خشاب ، مسالخي ، حواصل ، حداد ... الخ . ونلاحظ ، من ناحية اخرى ، ان الطوائف عكست مواقع فئات السكان في المجتمع ففي الربع الاول من القرن السابع عشر وجد بين الدباغين في حلب شيخ للاشراف من طائفة الدباغين ، وكذلك شيخ للدباغين غير الاشراف (٨٧) . ويعكس هذا اهمية الاشراف وكثرة عددهم بين الدباغين بخاصة ، وفي حلب بعامة ، كما يستدل من الدور السياسي والعسكري الذي لعبه الاشراف في حلب في القرنين التاليين . ولم نعث على أدلة لاحقة حول استمرار هذين الشيخين بين الدباغين الذين ذكرت لهم طائفة واحدة فيما بعد ..

ويبدو ان العلماء بين الحرفيين عوملوا معاملة خاصة ، كما يستدل من اعفاء الشيخ عبد الرحمن بن محمد ، من طائفة النشارين بدمشق ، من الكلف والمغارم العرفية المترتبة على هذه الحرفة « لكونه اماما وخطيبا ويتعاطى ذلك (أي النشارة) لاجل معيشتة ، وانه قبل تاريخه منع من التعرض له بموجب حجة شرعية ابرزها من يده » (٨٨) .

وقد لقي الفقراء والمفلسون من الحرفيين اهتماما ورعاية كبيرين . فالذي كانت بذمته ديون لم يستطع الوفاء بها قسط عليه الدين بنسبة تتناسب

مع ثروته ، ويختلف ذلك من حالة الى اخرى . ففي احدى الحالات ثبت لدى القاضي فقر احد العاملين في صناعة تحميل البضائع اذ كان مدينا لعدد من الناس بخمسمائة قرش ، فقرر القاضي ان يدفع المدين خمسا وعشرين قرشا من فاضل كسبه كل سنة ليوزع على ارباب الديون بنسبة ديونهم (٨٩) . وفي حالة اخرى ثبت اعسار اب وولدين يعملون في الحياكة فقسطت الديون التي كانت بدمتهم بان اعطوا ، من فاضل كسبهم ، لصاحب كل مائة قرش خمسة قروش (٩٠) .

وعرفت الطوائف الحرفية درجة متميزة من الاخلاقية المهنية التي ظهرت على مختلف المستويات ، فشيخ الطائفة اشترط فيه ، الى جانب معرفته بامور الحرفة وقدرته على اداء واجبات المشيخة ، ان يكون متحليا بالعبقة والاستقامة والتدين . واشترطت الصفات نفسها في التقيب واليكيك باشي . واذا اخل الشيخ ومساعدوه بالثقة التي وضعت فيهم حق لافراد الطائفة طلب عزلهم . ووافقهم القاضي ، عادة ، على ذلك بعد ان ثبتت لديه صحة دعواهم . وطبقت المقياس ذاتها على الحرفيين ، فالحرفي الذي يفش في عمله (يعامل بما يستحقه من الاهانة والحقارة » (٩١) . وحين ثبت لدى القاضي ان شخصا وولديه من طائفة الصباغ هم « على غير الطريق المستقيم في بيعهم وشرائهم وانهم دائما يتناولوا على الناس بغير حق » وافق القاضي على طرد هؤلاء من السوق (٩٢) . وقد هدد شيخ الترايين في حلب افراد طائفته بالا يلقي احد منهم التراب على المقابر ، او في الطرق ، او على التلال بظاهر المدينة ، وان يحصر ذلك في الحفر والمغارات المهجورة . ويعاقب المخالف بما يستحق من الاهانة (٩٣) . وحين اخل صباغ ، اعطي الف درهم من الحرير لصبغه ، بشروط الصباغة ، توجب عليه اعطاء صاحب الحرير الفا ومائة وثمانين درهما من الحرير الخام (٩٤) . ويبدو ان تفسير الزيادة في وزن الحرير المعوض هو انها تعويض اضافي لان هذا الوزن الاجمالي يعادل وزن الالف درهم من الحرير الخام المسلمة أصلا الى الصباغ والتي ربما كان وزنها سيزداد الى الف ومائة وثمانين درهما بعد صبغها بنتيجة ما يلحق بها من زيت ومواد اخرى اثناء الصباغة . وظهر بين الطوائف اتجاه نحو تطبيق العدالة الاقتصادية بين الحرفيين . فالشيخ هو المسؤول ، عادة ، عن توزيع المواد الخام بالتساوي على افراد الطائفة ، ولكنه غالبا ما اخذ لنفسه حصة ونصف .

ويدل هذا التأكيد على الالتزام بالاخلاقية المهنية على اهتمام الحرفيين ، وبالتالي الشعب ، بالممارسة الاخلاقية . وينعكس ذلك بالمقابل ، على توطيد

فكرة الاخلاق بين الناس . وامكن للطائفة ان تصهر الحرفيين ، على اختلاف مذاهبهم ، في انضباط مهني تجاوز حدود التمييز بينهم ، فشارك المسلمون والمسيحيون في انتخاب شيخ الطائفة الحرفية على اساس من المقدرة والاستقامة والتدين .

ومما يجدر بحثه ، في مجال الحياة الاجتماعية للطائفة الحرفية ، تقصي العلاقة بين الطوائف الحرفية والطرق الصوفية ، ومقدار ما اسهمت به التنظيمات الحرفية في نشر الطرق الصوفية ، واستمراريتها ، وكذلك مقدار ما مارسه الطرق الصوفية من تأثيرات على الحرفيين في مجال تقديم الطاعة لشيخ الطوائف وموظفيها الاعلى . ونظرا لاهمية هذه الموضوعات التي لم تدرس بعد فانها تحتاج الى ابحاث خاصة بها .

وعلى الصعيد الاداري ، لعبت الطائفة دورا هاما من حيث تنظيم العلاقة بينها وبين السلطة الحاكمة . فالسلطة تبلغ اوامرها الى الحرفيين عن طريق شيخ الطائفة . وبالمقابل ، يرفع الحرفيون مطالبهم الى السلطة عن طريق الشيخ . وتجلت العلاقة بين الطرفين ، بأوضح صورة ، في مجال الضرائب . ووجدت ضرائب ثابتة واخرى عارضة ، فالاولى ، التي اشير اليها احيانا باموال الميري (من اميري اي دولة) ، جمعت عن طريق الالتزام ، وهو في الغالب لسنة . ومثال ذلك التزام مقاطعة دق القطني ، ومقاطعة دلالية العطارين ... الخ . ويصعب معرفة نسب الضرائب الثابتة الى العارضة . وقد اشير الى الاخرة بتعابير مختلفة مثل « تكاليف عرفية » او « مال الاوردي او العرضي » ، اي الجيش ، وهي مدفوعات غير منتظمة فرضتها الدولة لتمويل حملة او غير ذلك . اما « مال المشيخة » فهو ما يفترض انه مخصص لشيخ الطائفة . وايا كان الحال ، وجب على كل حرفي في الطائفة المساهمة ، حسب امكاناته ، في اداء الضريبة التي كانت تفرض بصورة جماعية ، ويقوم شيخ الطائفة ، بمساعدة بعض الموظفين ، بجمع اموال الضريبة من الافراد بالطريقة التي يرونها .

واشترك مع شيخ الطائفة في عملية توزيع الضرائب ثم جمعها كل من نقيب الطائفة واليكيت باشي فيها ، الى جانب شخص دعي بالمعرف . وقد نصب المعرف على مجموعة من الطوائف وكلفها بدفع ما توجب عليها بموجب الدفتر (٩٥) . وذكر ايضا الحواط الذي يبدو ان مشاركته اقتصر على جمع مال الجزية (٩٦) .

وتوضح الامثلة التالية كيفية جمع الضرائب ، فقد اتفق شيخ طائفة الصابونية بمدينة حلب وجماعة من الصابونية مع طائفة الصابونية في محلة

..... د. عبد الغريم رافع

بانقوسا على أنه اذا وقعت على طائفة الصابونية بحلب تكاليف عرفية يكون أربعة أخماسها على المدينة وتوابعها ، والخمس الخامس على صايح بانقوسا (٩٧) .
واذا تخلف عضو في الطائفة عن المساهمة في التكاليف العرفية « يفعل معه العقارة التامة » (٩٨) .

وفي الحالات التي تكون فيها طائفة ، او مجموعة طوائف ، تابعة (يبق) لطائفة أخرى ، تشترك هذه الطوائف معا في تحمل التكاليف ، مثال ذلك ان طائفتي المطافجية واللبايدية التابعتين لطائفة الشعارين ، تحملتا ثلاثة ارباع التكاليف ، وتحملت طائفة الشعارين الربع الرابع (٩٩) ، وفي مثال آخر التزمت طائفة المسالخية ، التابعة لطائفة القصابين ، بدفع مبلغ معين للطائفة الاخرية من التكاليف (١٠٠) .

وقد روعيت اوضاع الطوائف المادية عند فرض الضرائب عليها . مثال ذلك ان مبلغا من المال فرض على عدد من الطوائف الحرفية في حلب للمساهمة في تمويل حملة امر بها السلطان ، وطلب من والي حلب المشاركة فيها ، وذلك في شوال ١٠٤٦ / آذار ١٦٣٧ . واجتمعت الطوائف المعنية واتفقت ، دون اكراه ، على توزيع مبلغ الضريبة بالنسب التالية :

جماعة باززستان ٤٣٧ (بالقروش الريالية) ، بقالين ٢٩٤ ، قوافين ٢٧٣ ، عطارين ٢٥٩ ، سراجين ١٩٧ ، قره قماش ١٩٥ ، عقادين ١٨٧ ، سيوفية ١٧٥ ، قاقوجية ١٦٤ ، صباغ ١٦١ ، سوق دهشة ١٥٩ ، خبازين ١٣٥ ، قصابين ١٣٢ ، مطاقجية ١٢٦ ، خياطين ١٢٣ ، حدادين ١٢١ ، سمرجية ٩٦ ، بياطرة ٨٩ ، اشجية ٨٢ ، فرايين ٨٢ ، علافين ٧٧ ، نجارين ٧٣ ، عباجية ٦٩ ، حبالين ٦١ ، سرفجية ٣٣ ، قازنجيان ٢٩ ، حلاقين ١٣ (١٠١) .

وسواء دلت كلمة جماعة على طائفة بكاملها ، ام على جماعة منها فان تفاوت النسب بين الجماعات يبقى قائما ، ويستدل منه على الملااة المالية لكل جماعة . وليس غريبا ان جماعة باززستان (أي السوق حيث خزن التجار بضائعهم وسوقوها واحتفظوا فيه بسيولتهم المالية وبالامانات) (١٠٢) ، تحملت العبء الاكبر من الضريبة .

وفي حالات اخرى وزعت الضريبة على افراد الطائفة بنسبة ما عين لكل منهم من المادة الخام ، التي درت عليه الارباح بحسب مقدارها وطاقته على تصنيعها ، مثال ذلك اتفاق افراد طائفة المعصرانية ان ما يطلب منهم من التكاليف

..... مظاهر من التنظيم الحرفي في بلاد الشام في العهد العثماني

العرفية لجهة الميري في عام واحد يوزع بينهم على قدر أخذهم السمس (١٠٣) .
وفي مثال آخر اتفق افراد طائفة الكونجية (الذين يدبغون جلود الجواميس
المسماة بالكون) ان تؤخذ التكاليف العرفية منهم على قدر الجلود التي
يدبغها كل منهم (١٠٤) .

واذا ما تعطلت فئة من طائفة حرفية عن العمل تحملت بقية الطائفة ماخص
الفئة المعطلة من ضرائب ، مثال ذلك أنه وجد في دمشق في الربع الثاني من القرن
الثامن عشر ، تسعة محامص للبن ، موزعة في مختلف مناطق المدينة ، وشكل
أصحابها طائفة محمصي البن ، وكان على الطائفة مائتا قرش ضريبة في الشهر .
وقد تعهد افراد الطائفة لدى القاضي انه اذا تعطل أحد المحامص فانهم يتحملون
ما عليه من مال الميري بحيث لا ينقص هذا المال (١٠٥) .

وبالإضافة الى دورها الاداري ، قامت الطوائف الحرفية بدور سياسي
وعسكري ، وبخاصة في القرن الثامن عشر ، حين ضعفت سلطة الدولة ، وبرزت
المنظمات الشعبية في مراكز المدن ، مثل البرلية في دمشق (وهي الطائفة
الانكشارية التي سيطر عليها السكان المحليون) ، والاشراف في حلب ، ورجال
الاحياء، للدفاع عن مصالح السكان المحليين . وقد استعرض الحرفيون في دمشق
في حوالي ١٧٦٠ ، وكان بعضهم « بالاسلحة والعدد والدروع الفاخرة » (١٠٦) .

اثر الاقتصاد الاوربي على الطوائف الحرفية في القرن التاسع عشر

ادت الثورة الصناعية في اوربا ، وبخاصة في مجال صناعة النسيج ، الى
اغراق اسواق العالم ، في القرن التاسع عشر ، بالبضائع التي تميزت بالجودة
والرخص . وكان ذلك ضربة شديدة للصناعات الحرفية المحلية التي لم تقو
على الوقوف في وجهها (١٠٧) .

وقاست الصناعة الحرفية في بلاد الشام من منافسة البضائع الاوربية
فضعفت واقتصر اصحابها . وتضرر الاقتصاد المحلي بصورة عامة .
ويعزى ذلك الى سببين رئيسيين ، أولهما عدم اهتمام اوربا ، في فترة التصنيع
الاقتصادي ، بمبادلة منتجاتها بالمنتجات المحلية ، كما كان الامر قبل الثورة
الصناعية . فقد غدت انتقائية فيما تستورد ، واقتصرت على ما يفذي صناعاتها
الناشطة . وبذلك كسدت في بلاد الشام المنتجات التي لم تعد تلائم اغراض

الصناعة الاوربية . والسبب الثاني هو اضطراب بلاد الشام ، ازاء هذا الوضع ، الى دفع ثمن البضائع المستوردة بالعملة النقدية ، اكثر منها بالمنتجات المحلية ، مما ارهق ميزانها التجاري .

واذى تدفق البضائع الاوربية الى بلاد الشام ، ورواجها فيها ، الى قيام دكاكين متخصصة ببيعها . وذكر من هذه الدكاكين في عام ١٢٧١/١٨٥٥ دكان بسوق الخياطين بالصف الغربي معدة لبيع الاقمشة الفرنجية ، واربعة دكاكين بسوق البريد بالصف الغربي معدة لبيع الاقمشة والامتعة الفرنجية ، ودكان اخرى بالصف الشرقي من هذا السوق (١٠٨) ونستدل من هذا ان البضائع الفرنجية اصبحت تحتل اماكن بارزة في اسواق دمشق الرئيسية . ولم تقتصر الصادرات الاوربية على الاقمشة بل تعدتها الى المواد الاولية ، واصبح الغزل الفرنجي ، مثلاً ، يستعمل في الانسجة المحلية .

وقد تعرض عدد متزايد من العاملين في النسيج الى الافلاس بسبب مزاحمة البضائع الاوربية . وتدنّت قيمة الانوال ، وكذلك قيمة خلو الدكاكين وكدكانها ، وكثر بيعها بفعل كساد المنتجات المحلية ، وقصر ملتزمو الضرائب عن دفع كامل ما يستحق عليهم من اموال للدولة نظرا لعجز الحرفيين عن تأدية ما يترتب عليهم لهم . وجاء في الكتاب الذي رفعه عبد القادر آغا خطاب ، احد كبار الملتزمين بدمشق ، الى السلطات المسؤولة فيها ، مطالبته بتخفيض قيمة التزام دفعة القطني والالاجة والصلواتي والديما ، وقلم المنكنا ودق القطني والالاجة وغيرها ، التي كانت في عهده ، بسبب « حالة الكار وقلة تشغيله من قبل تكاثر وجود اجناس البضائع الفرنجية فالاقمشة الشامية كلما لها على تدني ومن ذلك يزيد بالاقلام (الالتزام) المذكورة تدني حاصلاتها وهذا شيء معلوم عند حضراتكم » (١٠٩) . وقد نظرت السلطات المعنية في هذا التقرير في ٥ محرم ١٢٦١ / ١٤ كانون الثاني ١٨٤٥ . وقررت « بخصوص توقف بضائع الاقلام المذكورة في محروسة الشام من تكاثر البضائع الفرنجية فهذا مشاهد وملحوظ من تدقيق الاقلام المذكورة وتنازل اموالها عن العام الماضي لقلة رواج بضائعها التي هي القطني والالاجة والسدي فقبول هذا الالتماس فيه المفدورية على جانب الميري وان كانت اعدار عبد القادر آغا من تدني الاقلام المذكورة لسبب تدقيربضائعها مقبول» (١١٠) .

وانعكس اضطراب صناعة النسيج المحلية على تناقص عدد الانوال وانتاجها ، فقد قدر عدد انوال النسيج في دمشق في اواخر الثلاثينات من القرن التاسع عشر باربعة آلاف نول ينتج النول الواحد منها في الاسبوع بين اربع وخمس قطع

منسوجة (١١١) ، أي ما يقرب من ٨٣٢ر٠٠٠ الى ١ر٠٤ر٠٠٠ قطعة سنوياً .
وقدر عدد انوال القطني في دمشق عام ١٨٥٠ ب ٦٥٣ نولا ، استخدمت ٦١٣
رجلا و ٣٠٠ ولد . وقدر عدد انوال الالاجه في السنة نفسها ب ١٠١٣ نولا ،
استخدمت ١٠١٣ رجلا و ١٣٠٠ ولد ، وبلغ مجموع انتاجها بين ٢٢ر٠٠٠
و ٢٣ر٠٠٠ قطعة سنوياً (١١٢) ، وقدر عدد الانوال في عام ١٨٦٢ ، في اعقاب
الاضطرابات في دمشق التي زادت في تعطيل الاقتصاد المحلي ، حوالي ٣٠٠ نول ،
كان نصفها فقط منتجاً (١١٣) . ورغم ان عدد الانوال بلغ في السبعينات من القرن
التاسع عشر ٥٢٥٠ نولا ، كما ذكر نعمان القساطلي (١١٤) ، الا انه اعتبر عددها هذا
اقل مما كان عليه في بداية جيله . و اضاف « اما الان فقد نكبت صنائع دمشق
اغظم نكبة ولا سيما صنعة النسيج لسبب غلاء الحرير وكثرة انتشار البضائع
الافرنجية مع عدم متانتها » . ويلاحظ ان ٢٣٠٠ نول من مجموع الانوال التي
ذكرها القساطلي اختصت بنسيج الديما ، وهو النسيج الذي ابتكرته الصناعة
المحلية لترد على منافسة البضائع الاجنبية . وذكر الياس القدسي (١١٥) في
عام ١٨٨٣ « ان من تفحص احوال الحرف الدمشقية ونظر اليها نظر المنتقد
المدقق يرى انها في تأخير عظيم يوجب الاسف من جهة وفي ائقار يوجب الدهشة
من جهة اخرى ... اما الترتيب ... فهو كمال الانتظام وحسن الترتيب اللذان
لم يراهما محفوظين من ازمة قديمة الى يومنا هذا بين عملة اليدين من كل نوع
وملة » .

ونظراً للازمات الاقتصادية التي تعرض لها الحرفيون بسبب منافسة
البضائع الاجنبية للبضائع المحلية كثر الفقر والافلاس في صفوفهم ، وعمدت
السلطة القضائية الى جرد ثروة المفلس وتوزيعها على الدائنين : ففي احدى
الحالات اخذ الدائن من أصل القرش ربعه وسامح المدين بالباقي ، وفي حالة
اخرى اخذ النصف وبقي له بلزمة المدين النصف الاخر ، وذلك بغد ان ثبت
للقاضي ، في الخالين ، ان المدين معسر فعلا .

وغدا تهرب الحرفيين من دفع الضرائب أمراً شائعاً . ولجأ بعضهم الى
طلب حماية القناصل الاجانب والحصول على براءة من قبلهم لتحاشي الضرائب ،
وعرف الواحد منهم ، في هذه الحال ، بانه « يراءتلي » ، أي صاحب براءة تعفيه
من دفع الضرائب . وفي احدى الحالات تقدمت طائفة فتالة الحرير بمعرض
الى سلطات دمشق تبين فيه ان بعض افرادها ينقطعون عن العمل وقت دفع
اموال الميري ، ويعودون اليه بعد دفعه ، لتحاشي مشاركتهم في الدفع . فقررت
السلطات ان الذي يشتغل بالحرفة يجب ان يساوي اهل حرفته بمال الميري ،

وفي حال انقطاعه عن العمل يجب ان يعطي سنداً بعدم العودة اليه ، واذا عاد واشتغل ، ولو باخر السنة ، وجب عليه ان يدفع ما خصه من مال الميري ، ويطلب ذلك ايضاً ممن هم تحت الحماية .

واذا كانت البضائع الاجنبية قد اوجدت ازمة بالنسبة لصناعة النسيج المحلية ، فان التجار المحليين سرعان ما تأقلموا مع الوضع الجديد وجنوا ثروات كبيرة نتيجة تعاطيهم المتاجرة بالبضائع الاجنبية . واصبح تعاملهم مع « لوندرة » وغيرها امراً مألوفاً . ونشأت بنتيجة ذلك طبقة بورجوازية محلية من التجار والوسطاء ، ضمت اناساً من مختلف المذاهب ، كما يستدل من ثروات التجار وأنواع السلع التي تعاطوها .

وادی التداخل بين الاقتصاد الأوربي والاقتصاد المحلي والتفقيذات التي نجمت عن تشعب التجارة الى انشاء محكمة تجارية بدمشق عام ١٨٥٠ (١١٦) . وكانت محكمة مشابهة قد انشئت في دمشق في اواخر الحكم المصري ثم الغيت (١١٧) ، وانشئت محكمة مماثلة في حلب في عام ١٨٥٥ (١١٨) .

واذت كثرة البضائع المتدفقة من أوروبا الى بلاد الشام ، في القرن التاسع عشر ، الى الحاجة الى ميناء جديد يتسع لاستقبال السفن الكبيرة التي اخذت تسير بقوة البخار . وكانت الموانئ التقليدية ، قبل ذلك ، مثل الاسكندرونة وطرابلس وصيدا ، ضالحة لاستقبال السفن الشراعية التي تحمل كميات محدودة من البضائع . ولهذا انشاء ميناء بيروت لاستقبال البضائع الاوربية بكميات كبيرة . واقتضى ذلك انشاء طريق بيروت - دمشق لتصريف البضائع في الداخل . وقد بدأ العمل في هذا الطريق عام ١٨٥٩ من قبل شركة عثمانية مغلقة وبراسمال فرنسي بلغ ثلاثة ملايين فرنك موزعة على ستة آلاف سهم . وافتتح الطريق رسمياً في الاول من كانون الثاني ١٨٦٣ (١١٩) وارفع عدد المسافرين عليه من ٥٨٠٩ عام ١٨٦٣ الى ٨٤١٨ مسافراً في العام التالي . ووصل العدد عام ١٨٦٩ الى ٩٥٠٩ مسافر (١٢٠) . وجرت اتصالات بين ممثلي الشركة والقبايل البدوية المسيطرة على طرق المواصلات في بادية الشام لتسهيل انتقال القوافل التجارية بين دمشق وبغداد لنقل البضائع اليها من بيروت . ولطريق بيروت - دمشق اهميته في مجال الحياة الاجتماعية والثقافية ، فضلاً عن اهميته الاقتصادية ، لانه اصبح المعبر الرئيس للافكار والعادات الاوربية .

وادی انشاء شركات الملاحة الاوربية في البحر المتوسط (١٢١) في القرن التاسع عشر الى استخدام عدد كبير من الحجاج الاتراك طريق البحر للسفر

مظاهر من التنظيم الحربي في بلاد الشام في العهد العثماني

الى الحجاز ، وبخاصة بعد افتتاح قناة السويس عام ١٨٦٩ ، مما انقص عدد الحجاج المارين بدمشق (١٢٢) . وحرمت دمشق ، وبلاد الشام بعامه ، من كثير من النشاط التجاري الذي رافق قافلة الحج (١٢٣) .

ورغم التأثيرات المدمرة للاقتصاد الاوربي المتصنع على الصناعات المحلية ، وبالتالي على الطوائف الحرفية ، فلم تعد الصناعة المحلية وسائل التأقلم والرد على هذا التحدي (١٢٤) . فقد تكيفت بعض الصناعات مع التحدي الاوربي، وظهرت صناعات محلية تجمع ما بين المحلي والمستورد ، من ناحية المادة والزي . ولمجابهة رأس المال الاوربي المتفوق عمد التجار المحليون الى التحول تدريجياً عن الفردية التجارية ، الى المشاركة لمواجهة التحدي ، كما عمدوا الى تقليد البضائع الاوربية . فظهر في دمشق نسيج الديما ، الذي قلد الالاجه ، وهو القماش القلم المصنوع من الحرير والقطن . فعوضاً عن الخيوط الحريرية استخدمت القطنية فقط ، وهي ارخص ثمناً . وراجت الديما كثيراً . وحين شاع لبس البنطلون محلياً (الكلمة فرنسية ذات أصل ايطالي) ، نسج نوع خفيف الوزن من الديما يصلح لصناعة البنطلون ولبسه في الصيف . وكان هذا النسيج اجود وارخص ثمناً من النسيج الاوربي المماثل . واستخدمت المياه في تشغيل آلات غزل القطن محلياً . ورغم النجاح في هذه النواحي فلم يلق تقليد القماش الافرنجي المعرق رواجاً محلياً اذ ان « النساء ابين لبسه لانه غير مشرف بوسام افرنجي » (١٢٥) . وهكذا أصبح الاقتصاد المحلي يدور في فلك الاقتصاد الاوربي ، وترتب على ذلك حدوث تحولات اقتصادية واجتماعية وثقافية عميقة في بلاد الشام .

(١) انظر مثلاً :

Louis Massignon, *Encyclopédie de l'Islam*, 1ère ed. s.v. sinf; Claude Cahen, «Y-a-t-il eu des corporations professionnelles dans le monde musulman classique?» dans *The Islamic City*, edd. A.H. Hourani, S. M. Stern, Oxford, 1970, pp. 51 - 63.

(٢) رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار ، جزءان ، تحقيق الدكتور علي المنتصر الكتاني ، بيروت ١٩٧٥ ، ج ١ ، ص ٣١٤ - ٣١٥ .

(٣) انظر : سجل دمشق الشرعي ، رقم ٤٥ ، ص ٥٨ ، (تاريخ القضية) ٢٨ شعبان ١١٣٢ /

(٥ تموز ١٩٢٠) .

(٤) عني بنشرها محمد أحمد دهمان ، دمشق ، ١٣٤٣ .

(٥) انظر الدراسة المهمة عن الطوائف الحرفية في مصر التي قام بها :

André Raymond, **Artisans et Commerçants au Caire au XVIIIe Siècle**, 2 tomes, Damas 1973 - 1974.

(٦) في جزئين ، الجزء الاول ، تأليف محمد سعيد القاسمي ، والثاني تأليف جمال الدين القاسمي و خليل العظم ، تحقيق ظافر القاسمي ، نشر موتون وشركاه ، باريس - لاهي ، ١٩٦٠ .
(٧) الياس بن عبده بك قدسي قنصل دولة هولانده في دمشق ، « نبذة تاريخية في الحرف الدمشقية » ، قدمها للمجمع العلمي الشرقي الملتئم في مدينة لندن ، عام ١٨٨٣ ، ونشرت في :

Carlo Landberg, **Actes du VIe congrès des Orientalistes**, t. 2, Leiden, 1885.

(٨) مثلا وجد في دمشق في القرنين السابع عشر والثامن عشر من يصنع البنادق ، الذي عرف بلقب بندقي . ولكن لم تذكر طائفة البندقجية ربما لان صنع البنادق كان ممنوعا من قبل الدولة ، انظر حول عمل هؤلاء البندقجية وهويتهم بحثنا :

«The Local forces in Syria in the seventeenth and eighteenth centuries», in **War, Technology and Society in the Middle East**, edd. V. J. Parry and M.E. Yapp, Oxford University Press, 1975, p. 298.

Raymond, I, p. 265.

(٩) انظر :

(١٠) انظر بحثنا بعنوان :

«The Law-Court registers of Damascus, with special reference to craft-corporations during the first half of the eighteenth century», dans **Les Arabes par Leurs Archives (XVIe-XXe siècles)**. par J. Berque et D. Chevallier, Editions du Centre National de la Recherche Scientifique, Paris, 1976, p. 156.

(١١) انظر : سجل دمشق ، رقم ٢٢ ، ص ٦٠ ، ٥ ربيع الاول ١١٠١ / (١٧ كانون الاول

١٦٨٩) .

(١٢) انظر كنموذج لهذا النوع من البحث دراستنا : غزة ، دراسة عمرانية واجتماعية واقتصادية ، من خلال الوثائق الشرعية ، ١٢٧٣ - ١٢٧٧ / ١٨٥٧ - ١٨٦١ ، بحث قدم للمؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام المنعقد في الجامعة الاردنية بعمان ، ١٩ - ٢٤ نيسان ١٩٨٠ .

(١٣) سجل حلب ، رقم ١٥ ، ص ٢٣٧ ، ٥ صفر ١٠٣٧ (١٦ تشرين الاول ١٦٢٧) .

(١٤) سجل دمشق ، رقم ٣٣ ، ص ٩١ ، ٢٤ رمضان ١١١٩ / (١٩ كانون الاول ١٧٠٧) .

(١٥) سجل حلب ، رقم ٢٤ ، ص ١٣٤ ، ٢٧ محرم ١٠٥٥ / (٢٥ آذار ١٦٤٥) .

(١٦) سجل دمشق ، رقم ١٥١ ، ص ٢٦٠ ، ٦ ذي القعدة ١١٦٨ / (١٤ آب ١٧٥٥) .

(١٧) سجل حلب ، رقم ٢٣ ، ص ٤٤٨ ، ١١ رجب ١٠٥٥ / (٢ ايلول ١٦٤٥) .

(١٨) سجل حلب ، رقم ١٥ ، ص ٣٠٢ ، ٢٨ محرم ١٠٣٨ / (٢٧ ايلول ١٦٢٨) .

(١٩) سجل حلب ، رقم ١٠ ، ص ٥٩٥ ، ٢٠ رجب ١٠١٧ / (٣٠ تشرين الاول ١٦٠٨) .

مظاهر من التنظيم الحربي في بلاد الشام في العهد العثماني

- (٢٠) سجل حلب ، رقم ١٥ ، ص ٧٠٩ ، ٢٥ محرم ١٠٤٤ / (٢١ تموز ١٦٣٤) ،
رقم ٢٤ ، ص ٢٨٠ ، ٢٥ ربيع الأول ١٠٥٥ / (٢١ أيار ١٦٤٥) .
- (٢١) سجل دمشق ، رقم ٢٢ ، ص ٢٨٥ ، ١٢ جمادى الثاني ١١٠١ / (٢٣ آذار ١٦٩٠) .
- (٢٢) نبذة تاريخية ، ص ٢٨ .
- (٢٣) سجل دمشق ، رقم ١١ ، ص ١٢١ ، ٢٢ محرم ١٢٦١ / (٣١ كانون الثاني ١٨٤٥) .
- (٢٤) سجل دمشق ، رقم ٥٠ ، ص ٢٨ ، ٢٥ ذي الحجة ١١٢٤ / (٦ تشرين الاول ١٧٢٢) .
- (٢٥) سجل دمشق ، رقم ٢٤ ، ص ١٥٩ ، ٢٢ ذي الحجة ١١٠٣ / (٤ ايلول ١٦٩٢) .
- (٢٦) محمد الامين المحيي ، خلاصة الاثر في اعيان القرن الحادي عشر ، أربعة اجزاء ، القاهرة ، ١٢٨٤ / ١٨٦٩ ، ج ٤ ، ص ١٤٤ - ١٤٥ .
- (٢٧) ص ١٠ .
- (٢٨) القدسي ، ص ١٥ - ٣٠ .
- (٢٩) ص ١١ .
- (٣٠) سجل حلب ، رقم ١٥ ، ص ٤٢٠ ، ٢٠ محرم ١٠٣٩ / (٩ ايلول ١٦٢٩) .
- (٣١) المصدر السابق ، ص ٨٥٢ ، ٩ رمضان ١٠٤٦ / (٤ شباط ١٦٣٧) .
- (٣٢) حوادث دمشق اليومية ١١٥٤ - ١١٧٥ / ١٧٤١ - ١٧٦٢ ، تحقيق الدكتور احمد عزت عبد الكريم ، القاهرة ، ١٩٥٩ ، ص ٣٩ .
- (٣٣) نبذة تاريخية ، ص ١٢ .
- (٣٤) سجل حلب ، رقم ١٥ ، ص ٦٨٨ ، ٤ ربيع الثاني ١٠٤٣ / (٨ تشرين الاول ١٦٣٣) .
- (٣٥) المصدر السابق ، ص ٨٥ ، ٢٤ ذي القعدة ١٠٣٥ / (١٧ آب ١٦٢٦) ، ص ٧٦١ ،
٩ ربيع الثاني ١٠٤٥ / (٢٢ ايلول ١٦٣٥) .
- (٣٦) ص ١٤ .
- (٣٧) سجل حلب ، رقم ١٥ ، ص ٧٩١ ، ١٧ شعبان ١٠٤٥ / (٢٦ كانون الثاني ١٦٣٦) ،
ص ٨٣٠ ، ٣ ربيع الثاني ١٠٤٦ / (٤ ايلول ١٦٣٦) .
- (٣٨) المصدر السابق ، ص ٦٢١ ، ٢٥ ذي القعدة ١٠٤١ / (١٣ حزيران ١٦٣٢) .
- (٣٩) سجل حلب ، رقم ١٢ ، ص ٤٢٣ ، أواخر ربيع الاول ١١٩٩ / (أواخر كانون الثاني ١٥٩١) .
- (٤٠) سجل حلب ، رقم ٢٤ ، ص ١٣٧ ، ٢٨ محرم ١٠٥٥ / (٢٦ آذار ١٦٤٥) .
- (٤١) سجل حلب ، رقم ٢٠ ، ص ١٤ ، سلخ محرم ١٠٤٦ / (٤ تموز ١٦٣٦) .
- (٤٢) سجل حلب ، رقم ١٥ ، ص ٧٥٢ ، ١٤ محرم ١٠٤٥ / (٣٠ حزيران ١٦٣٥) .
- (٤٣) المصدر السابق ، ص ٣٨٠ ، ٢٢ جمادى الاول ١٠٣٨ / (١٧ كانون الثاني ١٦٢٩) .
- (٤٤) المصدر السابق ، ص ٧٦١ ، ١٧ ربيع الثاني ١٠٤٥ / (٣٠ ايلول ١٦٣٥) .
- (٤٥) المصدر السابق ، ص ٣٩٥ ، ١٦ شوال ١٠٣٨ / (٨ حزيران ١٦٢٩) .
- (٤٦) سجل دمشق ، رقم ٣٨٨ ، ص ٣٣٧ ، ١٥ جمادى الثاني ١٢٦٤ / (١٩ أيار ١٨٤٨) .
- (٤٧) سجل حلب ، رقم ١٥ ، ص ٣٨٦ ، ٢٥ جمادى الثاني ١٠٣٨ / (١٩ شباط ١٦٢٩) .

- (٤٨) سجل حلب ، رقم ٢٤ ، ص ١٢٥ ، ٦ ربيع الثاني ١٠٥٢ / (٤ تموز ١٦٥٢) .
- (٤٩) سجل دمشق ، رقم ٢١ ، ص ٢٨٥ ، ١٥ جمادى الثاني ١١٠١ / (٢٤ شباط ١٦٩٠) .
- (٥٠) سجل دمشق ، رقم ٤٥ ، ص ٥٨ ، ٢٨ شعبان ١١٣٢ / (٥ تموز ١٧٣٠) .
- (٥١) سجل حلب ، رقم ٢٤ ، ص ٣٧٦ ، ٢ ذي القعدة ١٠٥٢ / (٢٢ كانون الثاني ١٦٤٣) .
- (٥٢) سجل حلب ، رقم ١٥ ، ص ٨٠٥ ، ٢٦ ذي الحجة ١٠٤٥ / (١ حزيران ١٦٣٦) .
- (٥٣) سجل حلب ، رقم ٦ ، ص ٢٨٠ ، أواسط ربيع الاول ٩٩٦ / (أواسط شباط ١٥٨٨) .
- (٥٤) سجل حلب ، رقم ١٥ ، ص ٢٠٨ ، ٦ ذي القعدة ١٠٣٦ / (١٩ تموز ١٦٢٧) .
- (٥٦) سجل حلب ، رقم ١٥ ، ص ٦٨٨ ، ٤ ربيع الثاني ١٠٤٣ / (٦ تشرين الثاني ١٦٣٣) .
- (٥٧) سجل حلب ، رقم ٦ ، ص ٢٦٥ ، سلخ صفر ٩٩٦ / (٢٩ كانون الثاني ١٥٨٨) .
- (٥٥) المصدر السابق ، ص ٢٣٩ ، ٥ صفر ١٠٣٧ / (١٦ تشرين الاول ١٦٢٧) .
- (٥٨) سجل حلب ، رقم ٢٢ ، ص ٥٨ ، ٢٩ رجب ١٠٥٠ / (١٤ تشرين الثاني ١٦٤٠) .
- (٥٩) سجل حلب ، رقم ٧ ، ص ٤ ، ٢٩ رجب ٩٩٨ / (٣ حزيران ١٥٩٠) .
- (٦٠) سجل حلب ، رقم ١١ ، ص ٢٧٦ ، ١٠ ذي القعدة ١٠٢٧ / (٢٩ تشرين الاول ١٦١٨) ،
رقم ١٥ ، ص ٤٨٤ ، ٢١ رجب ١٠٣٩ ، رقم ٢١ ، ص ٢٤٨ ، ٦ شوال ١٠٤٩ /
(٣٠ كانون الثاني ١٦٤٠) ، رقم ٢٢ ، ص ١٥٣ ، ٥ شوال ١٠٥٠ / (١٨ كانون الثاني ١٦٤١) .
- (٦١) سجل دمشق ، رقم ٥٩ ، ص ٢٢٠ ، ١٠ رمضان ١١٤١ / (٩ شباط ١٧٢٩) .
- (٦٢) سجل حلب ، رقم ٦ ، ص ١٦٥ ، أوائل صفر ٩٩٦ / (أوائل كانون الثاني ١٥٨٨) .
- (٦٣) سجل حلب ، رقم ٤ ، ص (بدون ترقيم) ، غرة ربيع الثاني ١٠٥٢ / (٢٩ حزيران ١٦٤٢) ، رقم ٢٥ ، ص ١٩٦ ، ٢٢ شوال ١٠٥٨ / (٩ تشرين الثاني ١٦٤٨) .
- (٦٤) سجل حلب ، رقم ١٠ ، ص ٨٧٠ ، أوائل ذي الحجة ١٠١٦ / (أواسط آذار ١٦٠٨) .
- (٦٥) سجل حلب ، رقم ٢٢ ، ص ٨٩ ، ٢٥ شعبان ١٠٥٠ / (١٠ كانون الاول ١٦٤٠) .
- (٦٦) سجل حلب ، رقم ٢٢ ، ص ٥٠٠ ، (٤) رجب ١٠٢٨ / (حزيران - تموز ١٦١٩) .
- (٦٧) سجل حلب ، رقم ١٥ ، ص ٥٨٨ ، أواسط ربيع الثاني ١٠٤١ / (أوائل تشرين الثاني ١٦٣١) .
- (٦٨) سجل دمشق ، ٢٨ ، ص ١٩٥ ، ٤ جمادى الثاني ١١١٢ / (١٦ تشرين الثاني ١٧٠٠) .
- (٦٩) انظر : سجل دمشق ، رقم ٣٣ ، ص ١٣٦ ، ٥ ذي الحجة ١١٩ / (٢٧ شباط ١٧٠٨) ،
ص ١٣٩ ، ١٤ ذي الحجة ١١١٩ / (٧ آذار ١٧٠٨) .
- (٧٠) سجل حلب ، رقم ١١ ، ص ٧٦ ، ٢٢ محرم ١٠٢٧ / (١٩ كانون الثاني ١٦١٨) .
- (٧١) المصدر السابق ، ص ٥٥ ، ٢٩ ذي الحجة ١٠٢٦ / (٢٨ كالون الاول ١٦١٧) .
- (٧٢) سجل دمشق ، رقم ٢٤ (بدون ترقيم) ، ٨ رجب ١٠٩١ / (٤ آب ١٦٨٠) .
- (٧٣) سجل حلب ، رقم ٢٢ ، ص ٢٤٨ ، ١٤ رمضان ١٠٤٩ / (٨ كانون الثاني ١٦٤٠) .
- (٧٤) سجل دمشق ، رقم ٤٧٢ ، ص ١٣١ ، ١٤ صفر ١٢٧٢ / (٢٦ تشرين الاول ١٨٥٥) .

..... مظاهر من التنظيم الحربي في بلاد الشام في العهد العثماني

(٧٥) انظر تفاصيل اخرى عن الكدك في دمشق وحلب في بحثنا التالي الذي القيناه في المؤتمر الدولي الثاني للتاريخ الاقتصادي والاجتماعي لتركيا ، المنعقد في جامعة ستراسبورغ بين ١ - ٥ تموز ١٩٨٠ :

«The Impact of Europe on a traditional economy : The case of Damascus, 1840 - 1870», Ile Congrès International d'Histoire Economique et Sociale de la Turquie, Colloque : Economie et Sociétés dans l'Empire Ottoman, fin du XVIIIe-début du XXe siècle, Strasbourg, 1er - 5 Juillet 1980.

- (٧٦) سجل حلب ، رقم ٦ ، ص ١٦٦ ، ٣ صفر ٩٩٦ / (٣ كانون الثاني ١٥٨٨) .
- (٧٧) سجل حلب ، رقم ١٥ ، ص ٦٠٢ ، أواخر رجب ١٠٤١ / (اواسط شباط ١٦٣٢) .
- (٧٨) سجل دمشق ، رقم ٣٤ ، ص ٢٨ ، ٢٩ ذي الحجة ١١٢٢ / (١٨ شباط ١٧١١) .
- (٧٩) سجل دمشق ، رقم ٢٨ ، ص ٢٢٠ ، ١١ محرم ١١١٤ / (٩ موز ١٦٩٩) .
- (٨٠) سجل حلب ، رقم ٢٢ ، ص ٨٨ ، ٢٢ شعبان ١٠٥٠ / (٧ كانون الاول ١٦٤٠) .
- (٨١)

André Raymond, «Le déplacement des tannerie à Alep, au Caire et à Tunis». **Revue d'Histoire Maghrébine**, VII - VIII, 1977.

- (٨٢) سجل حلب ، رقم ١٥ ، ص ٤٢٠ ، ٢٠ محرم ١٠٣٩ / (٩ ايلول ١٦٢٩) .
- (٨٣) سجل حلب ، رقم ٢٥ ، ص ١٠٤ ، ١٠ شعبان ١٠٥٨ / (٣٠ آب ١٦٤٨) .
- (٨٤) سجل حلب ، رقم ١٢ ، ص ١٦٣ ، ١٠ جمادى الاول ١٠٢٢ / (١٢ آذار ١٦٢٣) .
- (٨٥) قاموس الصناعات الشامية ، ج ٢ ، ص ٤٨٤ .
- (٨٦) سجل دمشق ، رقم ٣٣ ، ص ٨٠ ، ٢٣ شعبان ١١١٩ / (١٩ تشرين الثاني ١٧٠٧) .
- (٨٧) سجل حلب ، رقم ٢ ، ص ١٥٢ ، ١٧ ذي الحجة ١٠٠١ / (٢٤ ايلول ١٥٩٣) .
- (٨٨) سجل دمشق ، رقم ٢١ ، ص ٢٧٥ - ٢٧٦ ، غرة جمادى الثاني ١١٠١ / (٥ آذار ١٥٩٣) .
- (٨٩) سجل دمشق ، رقم ١٤٨ ، ص ١٥٧ ، ١٩ جمادى الاول ١١٦٨ / (٣ آذار ١٧٥٥) .
- (٩٠) سجل دمشق ، رقم ١٤٨ ، ص ١٧٤ ، ٥ جمادى الثاني ١١٦٩ / (٧ آذار ١٧٥٦) .
- (٩١) سجل حلب ، رقم ٢٢ ، ص ٨٩ ، ٢٥ شعبان ١٠٥٠ / (١٠ كانون الاول ١٦٤٠) .
- (٩٢) سجل حلب ، رقم ٢٥ ، ص ١٢٤ ، ١٩ شعبان ١٠٥٨ / (٢٨ آب ١٦٤٩) ، وانظر كذلك ، دمشق ، سجل ٥١ ، ص ١١٩ ، ٨ رجب ١١٣٥ / (١٤ نيسان ١٧٢٣) .
- (٩٣) سجل حلب ، رقم ٢٣ ، ص ١٨٤ ، ١٩ جمادى الثاني ١٠٥٢ / (١٤ ايلول ١٦٤٢) .
- (٩٤) سجل حلب ، رقم ١٢ ، ص ٤٦٧ ، ١٩ ربيع الثاني ٩٩٩ / (١٤ شباط ١٥٩١) .
- (٩٥) سجل دمشق ، رقم ٥١ ، ص ٣٦ ، ٧ ربيع الاول ١١٣٥ / (١٦ كانون الاول ١٧٢٢) .
- (٩٦) سجل حلب ، رقم ٢٣ ، ص ٤٤٧ ، ٧ رجب ١٠٥٥ / (٢٩ آب ١٦٤٥) .
- (٩٧) سجل حلب ، رقم ١٥ ، ص ٨٥٢ ، ٩ رمضان ١٠٤٦ / (٤ شباط ١٦٣٧) .

- (٩٨) المصدر السابق ، ص ٧٩٩ ، ١١ ذي القعدة ١٠٤٥ / (١٧ نيسان ١٦٣٦) .
 (٩٩) سجل حلب ، رقم ٢٤ ، (بدون ترقيم) ، ١٧ شعبان ١٠٩٠ / (٢٣ ايلول ١٦٧٩) .
 (١٠٠) سجل دمشق ، رقم ٢١ ، ص ٢٨٥ ، ١٥ جمادى الثاني ١١٠١ / (٢٦ آذار ١٦٩٠) .
 (١٠١) سجل حلب ، رقم ١٥ ، ص ٨٢٠ ، ٢٦ شوال ١٠٤٦ / (٢٣ آذار ١٦٣٧) .
 (١٠٢) انظر حول أهمية البازستان (أو اليدستان) في الدولة العثمانية :
 Halil Inalcik, «The Hub of the City . the Bedestan of
 Istanbul», **International Journal of Turkish Studies**, Vol. 1,
 No. 1, pp. 1 - 17.

- (١٠٣) سجل حلب ، رقم ١٥ ، ص ٧٣٤ ، ٢٧ شعبان ١٠٤٤ / (١٥ شباط ١٦٣٥) .
 (١٠٤) المصدر السابق ، ص ٨٢٨ ، ٢٥ جمادى الثاني ١٠٤٦ / (٢٤ تشرين الثاني ١٦٣٦) .
 (١٠٥) سجل دمشق ، رقم ١٠١ ، ص ٢ ، ٢ جمادى الثاني ١١٥١ / (٧ تشرين الثاني ١٧٣٨) .
 (١٠٦) البديري ، ص ٢٣٤ ، وانظر أيضا بحثنا :

«Changes in the Relationship between the Ottoman
 Central Administration and the Syrian Provinces from the
 Sixteenth to the Eighteenth Century, in **Studies in Eighteenth
 Century Islamic History**, edd. Thomas Naff and Roger Owen,
 Southern Illinois University Press, 1977, p. 65.

- (١٠٧) انظر الدراسة الهامة التي قام بها حول لبنان :

Dominique Chevallier, **La Société du Mont Liban à l'Epoque
 de la Révolution Industrielle en Europe**, Paris, 1971.

- (١٠٨) سجل دمشق ، رقم ٤٧٢ ، ص ٢٢ ، ٢٩ شعبان ١٢٧١ / (١٧ ايار ١٨٥٥) .
 (١٠٩) سجل دمشق ، رقم ١١ ، ص ٩٩ ، ٥ محرم ١٢٦١ / (١٤ كانون الثاني ١٨٤٥) .
 (١١٠) المصدر السابق .
 (١١١) انظر :

John Bowring, **Report on the Commercial Statistics of
 Central Administration and the Syrian Provinces from the
 Sixteenth to the Eighteenth Century**, in **Studies in Eighteenth
 Middle East, 1800 - 1914**, ed. Charles Issawi, Chicago, 1966,
 p. 2²⁴.

- (١١٢) انظر :

Affaires Etrangères; Correspondence Commerciale,
 (Paris, Quai d'Orsay), Damas 3, (dépêche de) 20 janvier,
 1850.

- (١١٣) انظر :

A.E. CC, Damas 4, 16 octobre, 1962.

- (١١٤) ص ١٢٣ .

- (١١٥) « نبذة تاريخية » ، ص ٨ - ٩ .

AE, CC, Damas 3, 28 mai, 1850.

(١١٦)

Bowring, p. 93. (117)

AE, CC, Alep 31, 31 mai, 1855. (118)

AE, CC, Damas 4, 12 juin, 1863, Damas 5, 29 avril 1870. (119)

AE, CC, Damas 5, 29 avril, 1870. (120)

Messageries Impériales, et Compagnie Russe : مثل شركتي (121)

AE, CC, Damas 5, 19 Janvier, 1870. : انظر :

«The Impac of Europe», pp. 4 - 5. : انظر بحثنا : (122)

(123) القساطلي ، ص ١٢٤ - ١٢٥ .

(124) انظر :

Dominique Chevallier, «Un exemple de résistance technique de l'artisanat syrien aux XIXe et XXe siècles, les tissus ikatés d'Alep et de Damas», Syria, 39 (1962).

(125) القساطلي ، ص ١٢٢ .

* * *